مأوى لها برغم أن مواطنها بعيدة ومختلفة في إفريقيا وأستراليا وجنوب القارة الأمريكية مثل النعام الإفريقي، ونعام الإيمو، ونعام الكاسوري، والحباري، وطائر التم الأبيض، وأبو منجل، والحمام المتوج. ولقد مضت حلول التأقلم في طريقها إما بالتطبع أو بالتطبيع عبر حلول مُبتكرة وبسيطة، فالجمل الأمريكي (اللاما) من الجيل الأول كاد ينفق في فصول الصيف حيث الرطوبة المُربعة والقيظ، لكن مُجرد توفير أحواض للاستحمام ومظلات راقية عبرت بالجمل الأمريكي إلى الأمان، وتوالد، وجاءت سُلالته قادرة على التأقلم أكثر مع البيئة التي ولدت فيها. ومن المؤشرات المُهمة على تصاعد نجاح التجربة هي تلك الظاهرة التي تتحول فيها الطيور المُهاجرة إلى طيور مُقيمة، فهذه لا تُقيم إلا حيث تكون الحياة أفضل والأمان أكثر. وهذا ما حدث مع طائر الفلامنجو «الفانتير» وطيور الحباري، فقد راقت لها الحياة في صير بنى ياس فاستقرت واستوطنت. وهناك حكاية طريفة عن طائر البشاروش الذي لم يبلغ حد القدرة على التكاثر في الجزيرة لأسباب وراثية قوية، فقد عرفنا أن البشاروش بعد أن يفقس بيضه ويشتد عود صغاره تأتي بها للجزيرة لتلتمس المأوى والأمان.

***

مدينة دُبـي

شهدت مدينة دبي خلال السنوات القليلة الماضية ثورة تكنولوجية وإعلامية غير مسبوقة عربيًا وإقليميًا تستهدف حجز موقع بارز لدولة الإمارات العربية المتحدة في العصر المقبل والذي بدأت ملامحه بالتشكل مع نهايات القرن الماضي. ذلك العصر الذي لا مكان فيه للحديث عن النفط كمورد وحيد للطاقة أو عن الأنشطة الاقتصادية التي بات يطلق عليها مجازًا الاقتصاد القديم.

مدينة دبي التي تمكنت عبر تاريخها من تحقيق سمعة تجارية مرموقة في المنطقة استقرأت المستقبل جيدًا، وعرفت طريقها نحو الاقتصاد الجديد عبر دخولها بوابة اقتصاد المعرفة والميديا والمعلوماتية والتي من أجله تم البدء بإنشاء ثلاثة مشاريع تكفل لدبي تحقيق مرادها، وهي مدينة دبي للإعلام ومدينة دبي للإنترنت وأخيرًا المولود الجديد قرية المعرفة.

تُعدّ دُبي من أحدث مُدن الإمارات العربية المتّحدة وأكثرها تطورًا وازدهارًا. وتقع على ساحل الخليج العربي بين الشّارقة وأبو ظبي، وهي إمارةٌ عاصمتها دُبي وتبلغ مساحتها 3885 كيلو مترًا مُربّعًا. وتشهد دُبي نهضةً عُمرانيّةً عظيمةً، ففيها عمارات حديثة وفنادق راقية وشوارع فسيحة وحدائق زاهية، وهي مركز تجاري ومالي مُهمّ.

يعيش القطاع الصّناعي في إمارة دُبي تطورًا ظاهرًا. وتنتشر في دبي المصانع الحديثة. وأهمّ صناعاتها صناعة سبك الألمنيوم وإسالة الغاز الطّبيعي. وفيها مُجمّع دوبال، وهو أكبر مجمّع لصناعة الألمنيوم في الشّرق الأوسط، وهو مزوّد بوحدة تحلية للمياه، طاقتها الإنتاجية عشرون مليون جالون يوميًا.

تُحافظ دبي على أسواقها الشّعبية ذات الطّابع القديم، ونذكر من أهمّها: سوق الدّيرة، سوق الخيام، سوق بندر طالب. وفي دبي، مطارٌ دوليٌ كبيرٌ ساهم كثيرًا في تنشيط السّياحة بعد حصوله عام 1992على جائزة أفضل تسهيلات الشّحن في العالم. تُعتَبر دبي اليوم من أهمّ المرافئ الخليجيّة الحديثة،

واسم مرفأها «مرفأ جبل علي» الذّي يقع في الجنوب الغربي من المدينة، وفيه منطقة تُجاريّة حُرة.

وقد زادت نسبة الاستثمار فيها على المليار دولار سنويًا. تعمل في هذه المنطقة الحرّة أكثر من 450 شركةٍ من 53 دولةٍ. وثمّة توقّعاتٍ أن يزيد الرّقم عند نهاية هذا القرن على 1200 شركةٍ. حافظت دبي على المكانة الأولى في رابطة موانئ الحاويات في الشّرق الأوسط، كما إنّها حصلت على جائزة سوق السّفر العالمي لعام 1992م.

وعلى الصّعيد التّجاري، هناك ما يقارب 25 ألف شركةٍ في دبي تُمارس مختلف النّشاطات والأعمال التّجارية. وفي قاعات المعارض، تُقام المعارض والمؤتمرات العالميّة. وفي دبي، يُقام سباق الرّالي للسّيارات. وهناك السّوق الحرة في مطار دبي، وهي من أهمّ الأسواق الحرّة في العالم من ناحية التّنوع والأسعار والنّوعية. وبفضل ذلك، نالت عدة جوائز تقديريّة مهمّة. وفي دبي أضخم ملاعب الجولف في العالم ... ودرجت دبي على إقامة شهر التّسوق الذي لقي رواجًا وشهرةً عالميةً، ممّا زاد من شُهرتها العالمية، فأصبح شهر تّسوق دُبي عادةً سنويةً.

مدينة للإعلام

تبعًا للمتغيرات الحاصلة في العالم أخيرًا وبخاصة في أوربا وأمريكا الشمالية والتي تتجه نحو الاعتماد على اقتصاد التجارة الإلكترونية والتكنولوجيا أو ما يمكن تسميته بالاقتصاد الجديد، وهو عكس الاقتصاد القديم القائم على مجموعة الأنشطة الشائعة مثل المقاولات والاستيراد والتصدير والسياحة وغيرها، فقد قررت دبي تحويل اقتصادها إلى اقتصاد المعرفة. والمسيرة نحو هذا

الهدف بدأت مُنذ عام 1996م برغبة من ولي عهد دُبي ووزير الدفاع الفريق أول محمد بن راشد آل مكتوم.

وعن الخطوات المبدئية لتحويل اقتصاد دبي إلى اقتصاد المعرفة تم وضع خطة عمل وبرامج ودراسات تكفل تحقيق الهدف بتحويل اقتصاد دبي إلى اقتصاد المعرفة وتلخصت الخطة بضرورة خلق ثلاثة مشاريع رئيسية هي بمنزلة أهداف مرحلية تضمن الوصول إلى الهدف النهائي، وتلك المشاريع هي ما يلي:

1 ـ تداخل المعلومات والتكنولوجية:

ويهدف هذا المشروع إلى خلق بيئة تستطيع استقطاب الشركات المعنية بحيث يحدث الاندماج والتداخل في مدينة دبي والإمارات الأخرى.

2 ـ استقطاب المواهب الذكية:

والاقتصاد الجديد لن يُبنى على بنايات ومصانع فقط، بل على الأفراد وقوة العقل، وحتى الآن في دُبي لا تزال نسبة الحاصلين على الشهادات العليا أو المهتمين بمجال البرمجة قليلة جدًا، ومن هُنا كان لابد من خلق بيئة تجذب الكفاءات والمتميزين كى يُمكن الاستفادة من خبراتهم، وتكوين نواة قادرة على تحمل مسئولياتها في المستقبل.

3 ـ المضمون:

من غير الصحافة والإعلام والإنترنت لن تستطيع دُبي ترويج ما لديها من مشاريع، لذا وضعت هذه النُقطة المُهمة في الحُسبان. وهذه الأهداف الثلاثة

الرئيسية المذكورة تحتاج إلى إنشاء مشاريع متكاملة تضمن تحقيقها، ومنها على سبيل المثال ما يلي:

1 ـ تحويل حكومة دُبي لحكومة إلكترونية، وتم وضع برنامج مُدته (18) شهرًا، وقبل نهاية المدة بحوالي أسبوعين تم الإعلان عن تحول حكومة دبي إلى حكومة إلكترونية.

2 ـ مدينة دُبي للإنترنت، ومُهمتها توفير بيئة تكنولوجية لاستقطاب شركات التكنولوجيا وشركات التجارة الإلكترونية.

3 ـ مشاريع واحة دُبي الإلكترونية، وهي تعمل كحاضنة لشركات الإنترنت الجديدة، وتهدف إلى مُساعدتها على الانطلاق، ورأس مال هذه الواحة مُخصص للاستثمار في هذه الشركات لمُساعدتها.

***

مدينة المنامة

المنامة هي عاصمة البحرين، وأكبر مدنها، تقع في القسم الشّمالي الشّرقي من البلاد على ساحل الخليج العربي، وأمامها إلى الشّمال الشرقي جزيرة المحرق، تتّصل بها عن طريق جسر فوق البحر. وتكثر فيها أشجار النّخيل وفيها عيون مياهٍ عذبةٍ كثيرةٍ، وتنتشر في غرب البلاد بساتين الحمضيّات وسائر أنواع الأشجار المُثمرة، وميناؤها الرّئيسي هو ميناء سليمان. وتقوم عنده مصانع تعليب الأسماك ومطاحن الدّقيق ومعامل الآلات الثّقيلة وأحواض لبناء السّفن وإصلاحها. ومطار المنامة الدّولي مطار حديث يستقبل مُختلف أنواع الطّائرات. تكثر فيها المعاهد العلمية والصناعية والزراعية. وهي تُعَد

مركزًا من أهم المراكز المالية في منطقة الخليج العربي. وكذلك فهي تشتهر بحقول النفط الغنية.

معالم المنامة الحديثة والقديمة

في المنامة معالمٌ حديثةٌ وقديمةٌ تُشكّل حضارة عريقة جدًا من حيث العُمران والإزدهار، **وهذه المعالم تتمثّل فيما يلي:**

1 ـ الجسر المُعلّق الذي يقعُ إلى الشّمال الغربي في المنامة وهو يربط البحرين بالمملكة العربية السّعودية ويبلغ طوله 25 كيلومترًا وهو جسر المحبّة، آخر جسر الملك فهد.

2 ـ الأسواق الشّعبية القديمة، وأهمّها سوق الأربعاء الزّاخر بالمُنتجات المحلّية والصّناعات الشّعبية وسوق الحدّادين وسوق التّبغ والتّنباك.

3 ـ بيت القرآن أو «مُتحف الحياة» الذي يضمّ أندر النُّسخ القرآنية في العالم.

4 ـ منارتا مسجد الخميس وهو من أقدم المساجد، وأُقيمَ في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز.

5 ـ محميّة العرين حيث تتمّ رعاية الحيوانات النّادرة حفاظًا عليها من الانقراض.

6 ـ قلعة البحرين الشّهيرة وهي قلعة إسلامية قديمة تعود إلى القرن السّادس عشر الميلادي.

7 ـ قلعة عراد بين المحرّق وشبه جزيرة المحرّق.

8 ـ «بيت سيادي» العريق وهو مُتحف فنّي ضخم.

9 ـ المُتنزّهات ومن أشهرها عين عذارى حيث الحدائق النّضرة والمسابح الرائعة.

10 ـ مُتحف البحرين الوطني الذي تُعرَض فيه المُجسّمات الحرفية، وهو من أحدث المتاحف الوطنية في الشّرق.

11 ـ جامعة الخليج وهي من أحدث الجامعات في الشّرق.

***

بغـداد

يعود تاريخ بغداد، عاصمة العراق، إلى النّصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث ازدهـرت فيها مستوطناتٌ بشريةٌ عديدةٌ، منها مدينة «شـادوبـم» التي تُعرَف اليوم باسم «تل حرمل» والتي بيّنت الـدراسـات عن وجود جامعةٍ فيها. وبالقرب من شادوبم كان هناك مركزٌ حضريٌ آخر يُعرَف بإسم زارلو.

وفي الجانب الغربي من دجلة كان العديد من المراكز الحضرية الرّئيسية، منها مدينة دوركوريكالزو التي زخرت أبنيتها بقصورٍ مُزيّنةٍ وبرج مدرج ومعابد ودور سكن وشوارع.

وتوصّلت التنقيبات إلى أنّ زمن تأسيس المدينة يعود إلى عهد الملك

كوريكالزو (القرن الخامس عشر ق.م.) كما اكتُشِفَ في بغداد عددٌ من الآثار التي تمثّل مراكز حضارية من العصرين الآشوري والبابلي.

أمّا تأسيسها الجديد فيعود إلى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، الذي أسّس أولًا مدينة المستديرة، وكانت خالية من كل المنشآت الترفيهية. ولمّا قرّر الخليفة المنصور بناء العاصمة الجديدة واختار لها الموقع الصالح، أمر بتخطيطها على الأرض بمادة قابلة للإشتعال، فأشعل فيها النّار ليلًا، فظهر له شكل مدينته، فاختار لها المُهندسين الذّين أشرفوا على بنائها. هكذا شُيِّدت المدينة التي دعاها المنصور «دار السّلام»، وأحيطت بخندق وأسوار تحميها من الأخطار.

شهدت بغداد خلال سنوات قليلة تطورًا حضاريًا واسعًا، ممّا دفع بالخليفة المنصور إلى تشييد مدينةٍ في الجانب الشّرقي من نهر دجلة سمّاها الرّصافة. ومنذ ذلك الحين صارت بغداد رائدة في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثّقافية والعلمية. وقد بلغت أوجهًا في عهد الخليفة هارون الرّشيد حيث بلغ فيها العمران ذروته، فأُقيمَت الجوامع والمساجد، ودور العُلماء والقصور الفخمة الفارهة.

وبعد أن نقل الخليفة المُعتصم بالله العاصمة إلى سامراء عَرَفت بغداد فترة انحطاطٍ، لكنّ سرعان ما عادت لتكون هي العاصمة من جديدٍ.

في عهد الخليفة المُعتمد تركّز التّوسع الحضاري في الجانب الشرقي، أي في الرّصافة التي أحاطها الخليفة المُستظهر بسورٍ ضخم، وتمّ ربط دفتيّ دجلة بثلاثة جسورٍ أساسية، واستُعمِلَت الزّوارق والقوارب في دجلة كوسائط للنقل بين الرصافة والكرخ. وبذلك صارت بغداد بمنشآتها ومرافقها تضمّ أكبر تجمّعٍ سكانيٍ باعتبارها عاصمةً من عواصم العالم الإسلامي.

أخذ النّهوض الحضاري المتميّز الذي شهدته بغداد يتآكل بعد استحواذ جماعاتٍ غير عربيةٍ على السّلطة، مُمهِّدةً بذلك للغزو المغولي، فبدأ بريق الحضارة يخبو حتى صارت مركزًا لولايةٍ في أطراف الدولة العثمانية بعد أن كانت عاصمة العالم. وقد ظلّت محصورةً داخل أسوارها القديمة طيلة عدّة قرونٍ من القهر والاستعباد الأجنبي.

في القرن التّاسع عشر شهدت بغداد بوادر نهوض الصّراع السّياسي بين أحزاب الدّولة العثمانية الذي أدّى إلى استحداث بعض الإصلاح في بغداد، كذلك فإنَّ فتح قناة السويس قد أدّى إلى تفكّك اقتصاد المقايضة في العراق وربطه بالاقتصاد العالمي. وبعد هزيمة العُثمانيين في الحرب العالمية الأولى وسقوط العراق تحت النّفوذ البريطاني، عادت لتصبح عاصمةً لدولة العراق الحديث.

كان أوّل تطويرٍ عُمرانيٍ خارج المدينة القديمة استيطان القوات البريطانية المُحتلّة في منطقتي الهنيدي والوشاش، ثمّ أعقبه التوسع العمراني في منطقة حزام دجلة. وكان صدور نظام الطّرق والأبنية عام 1935م مؤشّرًا على اهتمام السّلطات على التّوسع العمراني. وكانت أوّل خطةٍ عمرانيةٍ لبغداد في عام 1939م، أعدّها فريقٌ ألمانيٌ تمّ بموجبها توسيع خدمات الماء والكهرباء وفتح شارع الكفاح وشارع الشّيخ عُمر في الرّصافة. وفي أوائل الخمسينيّات بات الامتداد الشّريطي في حزام

نهر دجلة يُغطّي المنطقة الممتدّة من مدينة الكاظمية في الشمال حتّى معسكر الرّشيد في الجنوب. وقد ساعد إنجاز سدّ الثرثار وانحسار خطر الفيضان إلى حدٍ كبير في هذا التّوجه. كان لفتح الطُّرق السّريعة في جانبي الكرخ والرصافة الأثر الكبير في التحضر العمودي على النهر، وركنت بغداد إلى إعداد تصميم أساسي تمّ تحديثه في التّصميم الإنمائي الشامل لعام 1973 الذي شرّع بقرار مجلس قيادة الثّورة.

وأولى تنفيذ هذا التّصميم أهميةٌ بالغة المتنزهات والمناطق الترويحية والمساحات الخضراء والعديد من الملاعب الرياضية والمسابح ومراكز التّرفيه والتسلية، وفي مقدّمتها «جزيرة بغداد» السياحية التي تشملُ كازينوهات ومطاعم ومسابح ومرافق رياضية ومسرحًا مفتوحًا وبرج الماء المُشيّد بارتفاع 65 مترًا. ومع هذا فقد فَقَدَت بغداد البعض من منشآتها خلال حرب الخليج الأولى، ثم ما حصل بعده من القصف المُتتابع للمدينة من طرف أميركا وحلفائها أثناء حرب الخليج الثانية. وما زالت المدينة تعيش تحت بؤرة التوتر والاحتلال.

***

المُوصل

الموصل هي ثالث أكبر المدن العراقية وتقع في شمال العراق على نهر دجلة. وهي مركز محافظة نينوى وإحدى أهمّ المدن العراقية التي تلعب دورًا مميّزًا في قطاعيّ التجارة والصّناعة. وأهمّ صناعاتها صناعة المُوسلين (نُوع من الثياب المصنوعة من خيوط الحرير، وكلمة «موسلين» مُشتقّةٌ من كلمة «موصل») وإنتاج السُّكر وصناعة الكبريت.

وتشتهر الموصل بحقول النّفط الأهم في العراق، وفيها مصافي عين زالة المشهورة. وبالقرب منها توجد آثار نينوى المدينة التّاريخية القديمة. وفيها مطار مدنيّ، وتنشط فيها حركة التّجارة كونها على الخط الحديديّ العريض الذي يصل بغداد بالمُدُن السّورية الشّمالية كالقامشلي ودير الزور وحلب. وهي تتّصف بصحة هوائها وعذوبة مائها، وعلى العموم، فهي حارّة صيفًا وباردة شتاءً.

الموصل مدينةٌ قديمةٌ اعتُبِرَت ذات يوم باب العراق ومفتاح خُراسان، ومنها كان يُقصد إلى أذربيجان، وقديمًا قالوا:

ـ بلاد الدّنيا العظام ثلاثة: نيسابور باب الشّرق، ودمشق باب الغرب، والمُوصل لأنّ القاصد إلى الجهتين قلّما لا يمرّ بها، حتّى أنّها سُمّيَت بالموصل لأنّها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل أيضًا لأنّها تصل بين دجلة والفرات، وقيل لأنّ الملك الذي بناها اسمه الموصل، وهو راون بن بيوارسف، وأوّل من ساوى طرقات الموصل في العهد العربي الإسلامي وبنى عليها سورًا كان مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم، المُلقّب بالحمار، وهو آخر خُلفاء بني أميّة.

وكان هذا السّور فيما بعد يشتمل على جامعين اثنين: أحدهُما بناه نورالدين محمود في وسط السوق، وهو طريق الذّاهب والآتي، والآخر نشز من الأرض في صقع من أصقاعها قديم، وهو الذي بناهُ من قِبَل مروان بن محمّد، ومن مشاهير الموصل في القديم السرّي بن أحمد الرّفاء، وهو شاعرٌ ذَكَرَ المُوصل كثيرًا في أشعاره. ومن أهل الموصل الذين عُرِفُوا بالعلم والفضل: عبد العزيز بن حيان بن جابر بن حريث أبو القاسم الأزدي الموصلي المُتوَفّي عام 261 هـ.

ومن أبرز معالم الموصل اليوم مئذنة الجامع النّوري المائلة، وتُعرَف بإسم

الحدباء، وهي من أشهر معالم المدنية، ومن أقدم المآذن في العالم الإسلامي، وسور نينوى القديم وقد أُعيد بناؤه من جديدٍ وهو من بقايا مدينة نينوى الآشورية، وباب السّراي، السّرج خانة، ودار التوتنجي التي أعيد ترميمها من جديدٍ وهي من أقدم الدُّور الموصليّة، وقباب جامع النبي يوسف المخروطية الشّكل، والملاك المجنّح حكيم آشور وطبيبها الذي يعود تاريخه إلى آلاف السّنينح ومعبد آلهة الشمس حيث الأعمدة والتّماثيل الآشورية، وآثار النّمرود، وجنوب غرب الموصل كانت عاصمة الأمبراطورية الآشورية الثّانية.

***

مدينة الدّوحــة

الدّوحة هي عاصمة دولة قطر، وأكبر مدينةٍ فيها، وتقعُ في واحةٍ خصبةٍ واسعةٍ على السّاحل الشّرقي للخليج العربي، وفيها مطارٌ دوليٌّ متطوّر، ويستقبل المُسافرين من أنحاء العالم كافّةً، ومرفأ الدّوحة البحري مُهمٌّ إذ يُصدَّر منه النّفط. وبالقُرب من الدّوحة تقوم المصانع المُهمة، وهي مصانع تكرير النّفط والصّناعات البتروكيميائيّة، ومعامل لتحلية المياه.

ومن الدوحة تتفرّع الطّرق الرّئيسة المُعبّدة المُتّجهة إلى الرّويس وأبي الظّلوف شمالًا، وإلى رخان في الشّمال الغربي، وإلى غار البريد وأبي سمرة

في الجنوب الغربي، على حدود المملكة العربية السّعودية، وإلى مُسَيعيد على شاطىء الخليج العربي.

تتحلق الدوحة خليجًا مُستديرًا صغيرًا يقع في المنتصف من الشاطيء الشرقي لشبه جزيرة قطر. ويبتدىء قوس هذا الخليج بميناء الدوحة وينتهي بفندق شيراتون الدوحة الذي يبدو كأنه هرم عصري يرتفع على مرسى يطفو فوق المياه! وتواجهه جزيرة صغيرة تسمى جزيرة النخيل. وعلى امتداد الكيلومترات السبعة التي يجري خلالها نهرا الشارع الواسع المطل على فيروزية الماء! لا ينقطع النخيل عن تسييج الضفتين والسموق في الجزيرة الفاصلة بين نهري الشارع. وتتواصل حدائق الشاطيء على امتداد شارع الكورنيش! وتتواصل أيضًا ملامح الإصرار القطري على صون التراث المعماري العربي الخليجي القديم برغم الانخراط في التحديث. وفي هذا الشأن تعد الدوحة من أكثر العواصم الخليجية احتفاظًا بملامحها التراثية معماريًا. سواء بالحفاظ على القديم وترميمه أو بدمج الطراز العربي الخليجي في تصميم الأبنية الحديثة ابتداء من مبنى الديوان الأميري حتى مساكن موظفي الدولة الكبار والصغار على حدٍ سواء.

ولا تكتفي الدوحة بصون تراثها المعماري البديع والمريح للعين والنفس عند واجهة الكورنيش فحسب! فهي تفعل ذلك حتى أعمق أعماقها. يتمثل ذلك في حي الريان الذي يبعد سبعة كيلومترات عن مركز المدينة! وفي الضاحية الشمالية التي تبعد عن المركز ستة كيلومترات.

اللون الأبيض الناصع لأبنية أليفة تتنفس بارتياح في المساحات الشاسعة وسط النخيل! والسمات واضحة: نقوش الجص العربية حول الأقواس والأسوار والأبراج تأخذ شكل القلاع الخليجية القديمة! والأبواب من الخشب الثقيل المصفح والمحفورة صفحته بالنقوش! والسقوف القديمة من الخشب وسعف النخل مازالت تحيا في قمة الحداثة. بينما الباجادير (أو ملقف الهواء)، ولا يزال يرفع رأسه فوق الأبنية الحديثة بواجهاته الأربعة المفتوحة تستقبل الهواء من أي اتجاه يكون وتحيله إلى داخل الأبنية لتبترد أجوافها بلا أجهزة تكييف ولا مراوح.

شيء إنساني جميل تحس به في الأبنية الرائعة المطلة على الكورنيش وهو المقهى الشعبي المؤسس على نمط قلعة تتناسق داخل أسوارها البنية الحمراء عدة كتل معمارية ذات قباب وأبراج وأقواس! وباجاديرات ... بالطبع.

الدوحة مدينة تصر على ألا تتنازل عن شخصيتها أمام ضرورات وصراعات التحديث، وهي مُعادلة صعبة لكن العناد القطري الجميل يقوى على حمل شقي المُعادلة، وأمام هذا التطور السريع والمُتغيرات المتوالية في فكر الإنسان وتوجهاته يجد هذا الجيل المُخضرم مُحاولة الموازنة بين الماضي والحاضر وتطلعات المستقبل. المُهم أن تعرف كيف تقدم الماضي لجيل الحاضر والمُستقبل، هذا الماضي يجب ألا يُقدم بجمود ودون أخذ المتغيرات بعين الاعتبار. وفي تصوري أن هناك شقين لكيفية طرح الماضي. أولهما تاريخي يعتمد على التدوين وعلى الذاكرة والتسجيل، والثاني آداب وسلوكيات، وحرف وصناعات وفنون، وهذه يجب أن نُحافظ عليها ويعطيها الجيل الحاضر لجيل المستقبل حتى يكون هُناك تواصل بين الأجيال على أن يطوّع الجيد والجميل ليبقى مُستمرًا، وليربط هذا الجيل بجذوره وأصالته العريقة.

بيت التقاليد الشعبية الذي يُعد هو نفسه كمبنى أحد نماذج العمارة الخليجية النادرة القديمة، حيث يُعتبر البُرج الهوائي (باجدير) مفتوح على الجهات الأربع، وذلك كي يُؤمن تيارًا مُستمرًا من الهواء اللطيف للغُرف الداخلية خلال الصيف الطويل الحار، كما أن مُحتويات البيت هي ذاتها محتويات البيت القطري القديم، أما الأسواق القديمة فهي على حالها، ومنها سوق «الواقف» الذي سُمي هكذا رُبما لصغر حوانيته وتفرعات دروبه الضيقة الظليلة، والتي يدور فيها المتسوق وسط الزحام دُون أن يُفكر في الجلوس. وفي منطقة الشحانية في الجهة الغربية بمدينة الريان التي تبعد 45 كيلومترًا عن قلب الدوحة كانت قطعان المها (أو الوضيحي) تسرح آمنة في هذه المحمية التي تستهدف المحافظة على هذا الحيوان الذي أوشك على الانقراض من الجزيرة العربية لولا جهود دول الخليج البيئية ومنها قطر. وإذا كان الغزال العربي تراثًا بريًا عربيًا تصر على استعادته قطر في محمية الشحانية! فالشحانية أيضًا هي موضع عالمي معروف في دنيا الخيول العربية الأصيلة إذ يتم في مزارعها استيلاد أصفى السلالات من الحصان العربي! وفي هذه المزارع يوجد 90 حصانًا من أثمن خيول العالم ترتع في رحاب 300 هكتار من الأرض الخضراء المحفوفة بالنخيل والأسوار والبوابات المشيدة من الحجر الأبيض على النمط الخليجي القديم.

إنَّ التُراث البري للبادية العربية يجد في قطر رعاية كبيرة تصل إلى درجة العشق ابتداء من التصقير (أي القنص باستخدام الصقور) وحتى سباق الإبل! أما البحر الذي تحيط مياهه بشبه جزيرة قطر من كل ناحية! فإنه يشغل موقعه من قلب الحنين القطري للقديم! وثمة رحلة قصيرة جميلة بالقوارب التقليدية تنطلق من شاطىء خليج الدوحة الشمالي إلى جزيرة صغيرة تتمركز في الوسط واسمها جزيرة النخيل. وحتى لا تنقرض صناعة السفن وقوارب

الصيد التقليدية في قطر أنشئت ورشة أميرية لصناعة وصيانة السفن التقليدية من أبرز إنجازاتها صناعة سفينة تسمى البتيل على يد «قلاف» (أي بنّاء سُفن) قطري مشهور من جيل الآباء الذين عاصروا زمن الغوص والصيد! وطول هذه السفينة الكبيرة يبلغ 125 قدمًا وعرضها 31 قدمًا! وتتسع لنحو 200 شخص! وهي لا تزال تنقل القطريين للقيام برحلات بحرية ذات طابع تقليدي! رغم أنها مزودة بكل إنجازات الملاحة البحرية الحديثة حفاظًا على أرواح الأجيال الجديدة التي يشغلها الحنين إلى البحر بينما بعد بها عهد مصارعته.

الدوحة! هي كل خليج ملتف في بلاد العرب! وهي الشجرة وارفة الظل! ومن ثم تتعدد الدوحات فهناك دوحة في عمان وأخرى في الكويت! لهذا كثيرًا ما يشار إلى العاصمة القطرية باسم «دوحة قطر»! وهي دوحة يلتف فيها الخليج وتتفيأ بظلالها ملامح تراث يقاوم الاندثار! لكنني أعتقد أن الدوحة إذ تحمل اسم قطر لتمييزها! فإن قطر يصح أن تحمل بكاملها معنى الدوحة! خاصة من زاوية التاريخ.

لقد سُجلت أوضح الهجرات البشرية العربية إلى قطر فيما قبل الغزو الأوربي حيث كانت بلاد العرب مفتوحة لارتحال أهلها. وفي هذا السياق «ارتحل المعاضيد من بني تميم من مشارف واحة جبرين في نجد إلى شبه جزيرة قطر! وكان أبرز هؤلاء المعاضيد الشيخ ثاني بن محمد الذي وجد في المشارف الشمالية لشبه جزيرة قطر منتجعًا طيبًا حيث تقع مظان اللؤلؤ الذي كان آنذاك عصب الحياة الاقتصادية في الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب. ويُعتبر بهو فُندق شيراتون الدوحة جزيرة فضائية، حيث يدفع الإنسان لأن يرفع وجهه كثيرًا نحو الأعالي، فالفندق مشيد على شكل هرم من أحد عشر

طابقًا فوق لسان من الأرض امتد في عرض الماء بإرادة الفعل البشري، وهي عملية تُسمى (دفن البحر) إذ يتم عبرها زيادة مساحة اليابسة عن طريق ردم مساحات من مياه الساحل، وأحياء شاسعة من الدوحة لم تكن في السابق غير مساحات من البحر.

ولقد لعبت الريح لعبتها بالفعل مع هذه الأرض وهؤلاء الناس لكن رحمة الله ظلت واسعة ففي زمن الغوص كانت الريح مُواتية لتجارة اللؤلؤ الطبيعي في الخليج عامة، وقطر خاصة، وما إن استتب الأمر للؤلؤ المُستزرع الذي توصل إليه العالم الياباني ميكيمو توكوكيشيو عام 1890م، حتى بدأت تجارة اللؤلؤ الطبيعي في الكساد أمام غزو اللؤلؤ المُستزرع الرخيص، وراحت الأزمة تشتد في الخليج وتقسو على قطر، وعند ذروة الأزمة أدركت رحمة الله الناس.

فالنفط المخبوء في طبقات العصر الجوروي العائد إلى 185 مليون عام خلت أعلن عن وجوده، ولحكمة قدرية تمامًا لم يستطع المنقبون اختراق طبقات الصخور إليه إلا عام 1939م ليتدفق «زيت الصخر» ويعوض كساد لؤلؤ البحر، وإن أرجأت الحرب العالمية الثانية وتداعياتها تصدير أول شُحنة نفط قطرية إلى أواخر عام 1949م.

ومع ذُروة العطاء النفطي كان طبيعيًا أن يكثر الحديث عن مخاوف النضوب، ولكن الأرض والبحر عاودا فتح باب الأمل للقطريين باتساع قرنين قادمين من الزمان، فطبقات العصر البرمي من الأرض في يابسة قطر وتحت سطح مياهها الإقليمية والتي يعود تاريخها إلى 270 مليون عام تحتوي على مخزون هائل من الغاز الطبيعي المُنفرد يجعل من قطر ثاني أكبر مُمتلك للغاز في العالم وذلك يتمثل في حقل رأس لفان.

حيث يقع حقل غاز الشمال الذي بدأ اكتشافه عام 1971م في المياه القطرية شمال شرق شبه جزيرة قطر ويمتد جُزء صغير منه تحت اليابسة، ويُغطي في مُجمله مساحة قدرها ستة آلاف كيلومتر، أي ما يُعادل نصف مساحة الأرض القطرية كُلها، وتبلغ احتياطيات الحقل من الغاز القابل للاستخراج نحو 250 تريليون قدم مُكعب، وتزيد احتياطياته الإجمالية على 500 تريليون قدم مُكعب.

حقل هائل هذا شأنه كان لابد له من مشروع طموح للتطوير، حيث تتدرج مراحله صعودًا إلى المرحلة الأولى، حيث ظهرت الحاجة إلى استغلال غاز حقل الشمال خلال عقد الثمانينيات لدعم الطلب المحلي من الغاز! والذي لم يف به مكمن الخف البري بدخان! وبدأ تنفيذ المرحلة الأولى من التطوير في منتصف عام 1987م، وتم إنجازها وتشغيل مُنشآتها في مطلع عام 1991م بطاقة إنتاجية قدرها 800 مليون قدم مُكعب يوميًا من غاز حقل الشمال، وينتج عنها 750 مليون قدم مُكعب من الغاز الخفيف، ونحو 50 ألف برميل من سوائل الغاز الطبيعي والمُكثفات للتصدير.

في هذه المرحلة كان لابد من استحداث منشآت وإقامة شبكة أنابيب خاصة بالمشروع ومحطات ضخمة لمُعالجة الغاز، وهي تنقسم إلى منشآت بحرية تتألف من محطة إنتاج بحرية تقع على بُعد 80 كم شمال شرقي الساحل القطري في مياه يبلغ عُمقها 52 مترًا، وتضم هذه المحطة منصتي آبار، وقد تم حفر 8 آبار من خلال كُل منصة، ومنصة مُعالجة وتتم بها معالجة الغاز المستخرج من الحقل قبل نقله إلى مسيعيد عبر خطي أنابيب مُنفصلين، ومنصة المرافق العامة وتضم جميع الأنظمة الداعمة والمساندة للمنشآت البحرية كتوليد الكهرباء ومكافحة الحريق ومياه التبريد وغاز الوقود، ثُم

منصة السكن وتُوفر سُبل إقامة مشمولة بكُل الخدمات اللازمة لإقامة 75 شخصًا، وأخيرًا منصتان لدعم الجسور بين كُل هذه المُنشآت.

إنها مدينة لكن هذه المدينة الصناعية العائمة وسط الخليج في مياه قطر الإقليمية لا تبقى معزولة في البحر فثمة شبكة هائلة من الأنابيب توصلها بالبر لاستكمال معالجة الغاز تمتد بعد المعالجة الأولى في المحطة البحرية 80 كيلومترًا حتى رأس لفان عبر خطي أنابيب مُعتمدين قطرهما 34 بوصة للغاز الجاف، و 21 بوصة للمُكثفات، ويُواصل خطا الأنابيب سيرهما على البر.

ولن ينتهي دور مسيعيد في المستقبل، بل يتعزز برغم بروز نجم جديد يتألق لطاقة الغاز في منطقة رأس لفان التي تبعد 70 كيلومترًا عن الدوحة، ولا شك أن رأس لفان هي إطلالة البر القطري على حقل الشمال الواقع في البحر، وهي إطلالة عالمية الطموح أسست لإقامة مدينة صناعية جديدة ضخمة على مساحة 40 كيلومترًا مُربعًا، ولتضم عددًا كبيرًا من المُجمعات الصناعية التي تعتمد على الغاز من منشآت مُعالجة وتسييل وتصدير الغاز وتصنيع البتروكيماويات وتكرير المُكثفات، وإنشاء ميناء حديث لخدمة هذه الصناعات.

لقد تم إرساء عقد عالمي لتصميم وبناء رأس لفان في 7 سبتمبر عام 1991م، وكانت السنوات الست التي مضت مُنذ ذلك الحين ساحة محدودة لإنجاز كبير بين مُنشآت المُعالجة والتخزين وجسور وأوناش التصدير.

ثمة قناة ملاحية بطول 5 كم وعرض 280 مترًا وعمق 15 مترًا تحت سطح البحر تم حفرها وتعميقها، وحوض للسُفن مساحته 2 كم2 وبعمق 31.5 متر تم استكماله، وحاجز أساسي للأمواج بطول 6 كم، وآخر خلفي

بطول 5 كم مُكتملًا مع مرسيين لتحميل ناقلات الغاز المُسال، ومرسيين آخرين لتحميل المُنتجات السائلة والبتروكيماويات.

كذا أرصفة تحميل ناقلات البضائع الجافة وشحن المعدات الثقيلة. هذا غير مرافق الميناء المُختلفة من مبانٍ، وطُرق وشبكات صرف وإنارة ومياه وإدارة العمليات البحرية والمستودعات وكافتيريا ومباني الشرطة والجمارك والمسجد ومحطات الإطفاء. هذا غير مدينة العاملين في رأس لفان بكل خدماتها المعيشية والترفيهية والطبية ... إنه مشروع كبير يتأهب للعمل، وقد عرف الاكتمال.

الدّوحة مدينةٌ تُجاريّةٌ مُهمّةٌ، وتنشُطُ فيها حركة التّجارة وتنتشر فيها بيوت المال والمصارف وشركات التّأمين، وتتميّز بأنّها مدينة تشهد نهضةً عمرانيّةً حديثةً. ومن معالم الدّوحة قلعتها الشهيرة، والمسجد الكبير ذو المنارة المميّزة، والقصر وبرج السّاعة. وفي الدّوحة عددٌ من المعاهد العلميّة والكليّات الدّينية، وبها جامعة قطر التّي تضمّ مُختلف الأقسام والتّخصصّات، كما أنّ فيها مصائد لاستخراج اللّؤلؤ وصيد الأسماك.

لم تكن المُجمعات التُجارية الضخمة قادرة على إبعاد رائحة التراث التي يمكن أن تتسلل إلى زائر الدوحة، فعلى طول شارع الكورنيش الذي يلف المدينة، تطالع المرء مجسمات منمقة لدلال القهوة الخليجية، ونماذج ضوئية لسفن الصيد القديمة، فيما تنبعث رائحة أسماك البحر المختلطة برذاذ المياه.

مدينة تراها من البعد فتستعيد ذاكرتك مشهد حي مانهاتن في نيويورك، حين تكون واقفًا على الشاطيء الآخر، أو كنت قادمًا إليه عبر المياه، حيث تري الأبراج متناثرة بطول ساحلها متخذة أشكالًا متمايزة، لكن فندق الشيراتون بمبناه الهرمي كان الأكثر جذبًا للعين، حين تمتد الرؤية لتضيف

إلى المشهد العام مساحة متسعة من مياه ذات زرقة صافية كانت في بدايات صيف يوليو تمنح المنظر جمالًا فائقًا. وتتميز الدوحة بتنظيم دورات للألعاب والأنشطة الرياضية ويتمثل ذلك في قرية الألعاب الآسيوية في مدينة حمد الطبية.

وتتميز الدوحة بالمتاحف منها المُتحف الإسلامي، حيث تعود فكرة إنشاء مُتحف الفن الإسلامي إلى بداية عهد أمير قطر الحالي، الذي يعتبر جامعًا لمقتنيات وتحف ذات قيمة تاريخية وأثرية وفنية عالية جدًا، وقد كانت مجموعته التي أهداها إلى المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث هي النواة الأولى والأساسية لمجموعة مقتنيات قطر، وعلى أثر ذلك تقرر إنشاء المُتحف الإسلامي وبدأ البحث عن الشكل الذي يجب أن يكون عليه. ورأى أمير قطر أن يكون المُتحف مُتخصصًا بالفنون الإسلامية ويضم الأعمال الفنية عبر العصور ويكون المعيار الأساسي للمعروضات هو المستوى الراقي للفن والجمال، الذي يميز كل قطعة ويكون المعماري الذي يصممه واحدًا من ألمع المعماريين العالميين ومن ذوي الخبرة العريقة في أعمال مشابهة، وبالفعل فقد تم إسناد إعداد وثائق التصميم إلي مؤسسة الآغا خان التي لها باع طويل في هذا الجانب. وانتهى الأمر بتكليف المعماريين العالميين الكبار لوضع التصميمات اللازمة للمُتحف، الذي بدأ بالأبحاث والدراسات الموسعة، واطلع على مختلف العصور الإسلامية ومميزاتها وحضارتها وفنونها، وعندها بدأ النشاط الدءوب لتعزيز مجموعة مقتنيات قطر من التحف الفنية الإسلامية. أما المُتحف الإسلامي فيقوم على جزيرة في البحر ترتبط باليابسة بجسرين للزوار والموظفين، ويتكون المُتحف من بناءين، الأول هو المُتحف، والآخر هو المبنى التعليمي. أما الطابق السفلي (السرداب) فيمتد على كامل الجزيرة ويضم المخازن الرئيسية والخدمات الهندسية، وبعضًا من المكاتب الإدارية. أما مبنى

المُتحف فيضم قاعات عرض مؤقتة ودائمة ويتوسطه بهو هو عبارة عن فناء واسع يتوسط المبنى، وتقوم حوله أجزاء المُتحف. وأهمها: في المستوى الأول المعرض المؤقت وقاعة المؤتمرات وكافتيريا وغيرها، ومن المستوى الثاني إلى الرابع مساحات لعرض المقتنيات بمساحة لا تقل عن 1500م مربع، وفي المستوى الخامس الإدارة ومطعم لخدمة كبار الزوار، أما المساحة الكلية للمعارض فهي تتجاوز الـ 4500م2 عدا مخازن المجموعات، والتي تتجاوز الـ 2000 م2 ومركز الصيانة والترميم بمساحة لا تقل عن 400م2. أما المبني الثاني فيضم في طوابقه المستوى الأول وفيه مكتبة متخصصة ومركز للصيانة والترميم للمقتنيات، ويمتد هذا المركز إلى السرداب، أما المستوى الثاني فيضم المركز التعليمي الذي يضم قاعات تعليمية وورشات تدريبية وتفصل بين المبنيين حديقة واسعة هي عبارة عن الحديقة الشرقية، صممت بإيحاء من العمارة الإسلامية، ومن جهة أخرى هناك الحديقة الشمالية تنتهي بمرسى لليخوت. وبجانب مُتحف الفن الإسلامي هناك مشاريع أخري منها المُتحف العلمي والمُتحف البحري (الأكواريوم)، والحي الثقافي، وهناك المكتبة الوطنية، التي تضم في بنائها أكثر من مليوني كتاب، وستحتوي على مُتحف للمخطوطات والمسكوكات والتاريخ الطبيعي، وفن المستشرقين بمساحة 4500م2. وتشتمل المكتبة الوطنية على قاعات للمعارض الفنية بمساحة 4500م2، أيضًا إضافة إلى قاعة متميزة للمؤتمرات، ليكون منارة ثقافية تطل على الخليج العربي.

ويجري العمل في الوقت نفسه في مُتحف التصوير الضوئي وهو مُتحف آخر يضم مجموعة قطر من آلات التصوير والمعدات والتجهيزات المتعلقة بها، وكذلك مجموعة من الصور التاريخية المهمة، وتعتبر مجموعة قطر في حقل التصوير واحدة من أهم المجموعات في العالم، وصُمم المُتحف بطريقة

مبتكرة، ويضم المُتحف أيضًا مساحات واسعة للعرض واستوديوهات ومعامل للتصوير ونادياً للمصورين المحترفين ومكتبة متخصصة.

وتزامنًا مع هذه المشاريع المستحدثة يجري في الوقت الحالي تطوير مُتحف قطر الوطني ومجموعته القيّمة. وتشتمل التصاميم التي تعبر عن التجانس بين الماضي والحاضر، والقصر القديم والمبنى الحديث، على توسعة المُتحف، ليضم قاعات عرض جديدة لتاريخ قطر الطبيعي والإنساني والحضاري، بالإضافة إلى الفنون التي وجدت على أرضها، كما سيضم المشروع أيضًا مكتبة ومعارض متخصصة بالتراث القطري في البر والبحر، ويتحدث القطريون بزهو عن مشاريع أخرى قادمة يجري الإعداد لها، فهُناك مُتحف للسيارات وللمُتحف الرياضي ومُتحف السلاح، ومركز مُتخصص لصيانة القطع الأثرية، ومُتحف مُتخصص في النفط والغاز. وفي الدوحة يحظى الإعلام بأهمية كبيرة، ويلقى في الوقت نفسه دعماً غير محدود، وإذا كانت التجارب الحديثة في الصحة والتعليم إضافة إلى الغاز قد أصبحت دلائل مميّزة على قطر المستقبل، فإن الإعلام الذي قدم له ذلك البلد الخليجي تسهيلات غير محدودة قد بات أيضًا إحدى العلامات الدالة عليه.

من المتاحف القطرية المعروفة، وهو في الأصل قلعة عسكرية كانت سجنًا لمعاقبة المجرمين. وتتميز قلعة الدوحة بأسوارها العالية وأبراجها ومزودة بكافة الإمكانيات الدفاعية لصد أي هجوم. وفي عام 1978م قامت وزارة الأشغال العامة القطرية بتجديد القلعة وإضافة بعض الزخارف وفتح باب جديد لها يطل على الشارع الرئيسي. ثم تحولت القلعة بعد ذلك بحوالي ست أو سبع سنوات إلى مُتحف للفنون التشكيلية والحرف والصناعات اليدوية.

***

مكـة المكرمـة

كُلنا جميعًا نتوجه إلى مكة، ولكنها لا تتبدى لنا بسهولة، ولا نستطيع رؤيتها عن بُعد، وتبقى أشبه بمفاجأة كامنة وسط قفر من الأرض، تبدو أمامنا سلاسل من المُدرجات البُركانية التي تأخذ شكل السبحة، وترتفع تدريجيًا لتتحول إلى سلسلة من جبال الجرانيت المتجهمة، ويمتد بينها طريق الأسفلت ناعمًا كأنه نهر جاف، وهو نفس الطريق الذي سارت عليه القوافل مُنذ آلاف السنين، ووطئت عليه قدما الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ونعبر نفق (كدي) الذي يخترق حصار الجبال، لتبدو مكة أخيرًا مُتألقة بالضوء، ومُفعمة بالحياة، وهاجعة في واديها الضيق تحيط به المرتفعات الجبلية من كُل جانب، ونتوقف لنلتقط أنفاسنا في انبهار، وها هي أم القرى حيث لا يُوجد مكان في تلك الأرض إلا وهُناك قلب يهفو إليها، ولا توجد مجموعة بشرية غير معزولة، ولا يُوجد فيها من يتجه إليها وجدانًا وعقلًا في كُل يوم ... ولا يمكن أن تكون إلا معجزة سماوية تلك التي قادت نبي الله إبراهيم إلى هذا الوادي الخفيض وسط جبال (السروات) بكُتلها السوداء التي تبعث الرهبة في النفس، ولابد أنه منطق المُعجزة نفسه الذي يتخطى المنطق البشري، وهو ما جعله يترك زوجته ورضيعها في هذا المكان المُقفر، رُبما لأنه المكان الوحيد الذي لا يطمع فيه أحد حتى الذئاب، إنها لحظات غريبة تعطلت فيها كل قوانين الصحراء، فالماء قد انفجر في عين سيالة من تحت قدمي الرضيع الباكي وأمام الأم الولهانة. كما أن قبيلة (جُرهم) المُهاجرة قد توقفت مذهولة أمام هذه المرأة الوحيدة، ولم تحاول أن تستولي على البئر بالقوة كما يقتضي منطق الوجود، ولكنها استأذنت لتبقى في جوارها، وكانت السيدة (هاجر) تتوق إلى حمايتهم بقدر ما هُم عطشى إلى مائها، وظلت قوانين

الصحراء مُعطلة تاركة الفُرصة لحدوث المُعجزات والخوارق التي لم تتوقف في هذا الوادي الضيق، لذا لم يكن غريبًا أن يقف الرسول r فوق صخرة من صخور جبل أبو قبيس وهو يقول:

ـ والله إنك لخير بلاد الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا إنني أُخرجت منك لما خرجت ... ومكة المُكرمة من أشهر مدن العالم وفيها البيت العتيق الذي يحجّ إليه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، وتُسمّى مكة وأم القرى، وهي مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو 330 مترًا. وتعود عمارتها إلى عهد النّبي إبراهيم. وكان يعيش بنوه في الخيام والمضارب حتى عاد قُصي بن كلاب من الشّام في القرن الثاني من الهجرة فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة، ومن ثم أخذت تزيد عُمرانًا إلى الآن.

تمتدّ هذه المدينة من الغرب إلى الشرق في وادٍ مائلٍ من الشمال إلى الجنوب، مُنحصر بين سلسلتي جبال تكادان تتّصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب، أي على أبواب مكة الثلاثة، ولذا لا يُشاهد أبنيتها القادم عليها إلاّ وهو على أبوابها. والسّلسلة الشّمالية منها تتركب من جبل الفلج (الفلق) غربًا ثُم جبل (قيقعان) ثُم جبل (الهندي) ثُم جبل (لعلع)، ثُم جبل (كداء)، وهو في أعلى مكـة، ومن جهته دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح.

أمّا السّلسلة الجنوبيّة فإنها تتركّب من جبل أبي حديدة غربًا يتلوه جبل أبي قبيس إلى شرقيهما ثم جبل خندمة. وكُل سفوح هذه الجبال من الحرم تراها عامرةً بالبيوت والمساكن التي تتدرّج إلى قلب الوادي. ضمن هذه المساكن بعض الدّور القديمة، فنرى دار ابن عباس في المسعى على يمين السالك إلى المروة.

وفي الشمال الشّرقي للحرم آثار دار أبي سفيان المشهورة. والحرم الشريف يقع بين هذه البيوت مائلًا إلى الجهة الجنوبية ممّا يلي جبل أبي قبيس. وفي هذه الجهة دار الخيزران، يتلوها شرقًا شعب بني هاشم ويُسمّى شعب علي ثم شعب المولى ثم شعب بني عامر. وفي الجهة نفسها أيضًا كانت مساكن بني عبد المطلب، وسكن فيها أيضًا كثير من الأشراف. وأمّا باقي قُريش فكانوا في الجهة الأخرى من الحرم، ويقصد مكة زمن الحج المُسلمون من العالم الإسلامي أجمع، فترى فيها جميع الجنسيات والألوان المُختلفة. وقد أدت التوسعات الحديثة للحرم المكّي الشريف إلى جعل هذا الحرم قادرًا على استيعاب أكثر من مليوني حاج في مُوسم الحج، وهي تؤمّن لكُل الحجيج جميع وسائل الراحة والعناية لإتمام مناسك حجّهم على خير ما يُرام ... وفي السنوات الأخيرة أيضًا بدأ الحرم المكي يشهد موسمًا كبيرًا مشابهًا لموسم الحج، وذلك في شهر رمضان المُبارك، وبخاصّة في العشر الأواخر منه، حيث يؤم المسجد الحرام المُسلمون من أنحاء العالم كافةً لتأدية مناسك العُمرة ... وجميع أهالي مكة من المُسلمين، ولا يدخلها غير المُسلم مُنذ العام التاسع للهجرة التي نزلت فيه الآية الشريفة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 28]

فكان عليّ رضي الله عنه يُنادي في مُوسم الحج الذي أعقب نزول هذه الآية: ألا لا يحجّ بعد عامنا هذا مُشركٌ.

وكان المُراد بذلك منع المُشركين من الحج وعدم دخولهم البلد، وفي اجتماع المجلس الوزاري لمنظمة العالم الإسلامي تم إقرار مشروع باختيار

عاصمة ثقافية للعالم الإسلامي، وكان من الطبيعي أن تكون مكة هي أولى هذه العواصم، يُؤهلها لذلك مكانتها الروحية والتاريخية، التي لا يمكن أن تقارن بأي عاصمة أخرى، وفي الندوة التي عقدتها وزارة الحج السعودية بهذه المناسبة، أجمع المشاركون على أن تستمر الندوة للعام القادم وهي تحمل العنوان نفسه حتى يمكن استيفاء المزيد من الأبحاث حول تاريخ هذه المدينة الخالدة.

ولا يوجد بلد يحمل أسماء بقدر التي تحملها مكة، فقد أوردت لنا كتب التُراث حوالي أربعين اسمًا لها منها: بكة، أم القرى، البلد الأمين، أم رحم، القادسية، سبوحة الحرم، المعطشة، الرتاج، أم المشاعر ... وغيرها أسماء كثيرة، وتحمل كُلها دلالات مُختلفة على الدور الذي قامت به مكة على المستوى المادي والروحي، ومنذ أن رفع سيدنا إبراهيم أعمدة البيت العتيق، وقد أصبح لكل حجر في هذه المنطقة تاريخ مذكور، وأصبحت أصغر الوقائع جديرة بالحفظ والتدوين، ولابد أمام تاريخ طويل كهذا أن يختلط خيال الأسطورة بمداد الواقع، ولكن المُؤكد أن هذا الوادي قد أصبح محورًا مُهمًا تتصارع فيه القبائل للحصول عليه والظفر بسيادته، وكان الصراع ضاريًا فالذين طردوا منه كانوا أكثر من الذين استقروا فيه.

كانت قُريش هي القبيلة التي طال استقرارها في شعاب مكة، وهي التي أدركت الأهمية التجارية للبيت الحرام فأحاطته بالأصنام التي تمثل آلهة كل القبائل، واختارت موعدًا مناسبًا لموسم الحج، يكون في فصل الخريف في أعقاب الانتهاء من سوق عكاظ، بل إنها بدلت في طقوس الحج لتتناسب مع مصالحها وفرضت على الحجاج أن يلبسوا ملابس خاصة أعدتها لهم أو يطوفوا عرايا، فلقد مزجت قريش وفق عبقرية خاصة بين التجارة والطقوس الدينية، وصنعت لنفسها مكانة مميزة فوق كل القبائل، هذا إضافة إلى أنها

وهبت أهم مقومات الثقافية، فلقد خرج منها رسول الله الذي أنار العالم بالإسلام، والعربية هي لُغة القرآن، ولُغة الحياة.

مع قدوم الإسلام تطهرت مكة من أدران الوثنية، واستعاد البيت العتيق قُدسيته، ولكن مكة عوقبت عقابًا قاسيًا، فحتمية وقائع التاريخ التي لا ترحم لم تنس لها أنها أرغمت آخر الأنبياء على الهجرة منها، لذا تحول مركز الثقل السياسي منها إلى المدينة المنورة رغم أن الأمراء والخلفاء كانوا من قريش، ورضيت مكة مؤقتًا على مضض، ولكن هذا المركز العنيد وأصل الابتعاد عنها، اتجه شمالًا إلى دمشق ثم شرقًا إلى بغداد ثم غربًا إلى القاهرة، ورغم أن مكة قد شهدت العديد من الثورات وحركات التمرد فإنه قد تم سحقها بعنف، ولعل أبلغ دليل على ذلك هي حركة ابن الزبير الذي ثار على سلطة بني أمية ونادى بخلافته في دولة عاصمتها مكة.

كان ابن الزبير طفلًا سماويًا، متدينًا مثاليًا، لا أحد يدري إن كان يصلح ليكون حاكمًا، أم لا ولكن الزمن لم يكن صالحًا، كانت أمه هي أسماء بنت أبي بكر، وكان هو أول مولود للمهاجرين بعد أن استوطنوا المدينة، وكانت اليهود قد أشاعوا أن المسلمين قد أصابهم العقم ولن يستطيعوا الإنجاب بعد اليوم.

وعندما ولد عبد الله بن الزبير بدا كأنه بشرى من السماء، وحمله الرسول عليه الصلاة والسلام وظل يطوف به كل أرجاء المدينة، ولكن جيوش بني أمية لم تعامل ابن الزبير بهذا الدلال، لقد حاصرته داخل البيت الحرام، ورمته بالمنجنيق حتى دمرت الكعبة على رأسه، ولم يكتفوا بقتله ولكنهم مثلوا بجثته، وعندما انتهى المحاربون من ذلك طافوا جميعًا حول بقايا البيت الحرام شاكرين الله لأنه نصرهم على عدو الله، ترى من كان عدو الله ومن كان نصيره؟

ربما عادت هذه الفاجعة بالخير على دور مكة ومكانتها، فقد أبعدتها تمامًا عن معترك السياسة بكل ما فيها من دسائس وألاعيب، وأصبحت كما قدر الله لها مدينة خالصة للعبادة، على حد تعبير الأديب السعودي حسين بافقيه، وأصبح الحرم هو الملاذ الحقيقي للفقهاء والشعراء وعلماء اللغة والمنطق والفقه والشريعة ورواة الأحاديث وجوابي الآفاق والزُهاد والتائبين والرُكع السجود.

وكان من عوائد أهالي مكّة أن كبراءهم يرسلون أولادهم وهم في نعومة أظفارهم إلى البادية، فينشأون فيها على البداوة التامة دون شظف البشر حتّى إذا ترعرعوا عادوا إلى مكة وقد تعلّموا العربية الصحيحة مع بعض لهجات القبائل، وحفظوا أشعارهم وأحسنوا ركوب الخيل والرّماية. ومن عادة أهل مكة التّأنق في المأكل والمشرب واللّباس. وترى في مساكنهم كثيرًا من أدوات الزّخرف والزّينة والرياش الثّمينة وخصوصًا البسط العجميّة نادرة المثيل. ومن عاداتهم تقديم الشّاي في أي وقتٍ تحيةً للقادم عليهم وإقامة المآدب ويتفاخرون بكثرة صنوف الطعام المتغايرة في شكلها وطعمها، فمنها الهندي والعربي والشّامي والمصري والتركي.

أفراح أهل مكة ومآتمهم غايةً في البساطة. فمن عاداتهم في زواجهم أنهم يدعون الأهل والأصدقاء، فيأتي الرجال ويجلسون في الأماكن المُعدّة لهم خارج البيت. أمّا النساء فيدخلن المنزل فيجدن على باب قاعة الجلوس

قصعةً كبيرةً مملوءةً بمعجون الحنّاء فتحن المرأة يدها ثم تدخل وتجلس مع باقي النسوة، ثم يزففن العروس إلى عريسها ويعدن إلى بيوتهنّ. ومن عاداتهم الاصطياف بالطائف والهدى فوق جبال كرا التي ترتفع عن سطح البحر 1760 مترًا وفيه جنات كثيرة.

تحظى مكـة المُكرّمة بمكانةٍ ساميةٍ ومقدّسةٍ لدى المسلمين. فهي قبلتهم جميعًا وفيها الكعبة المشرّفة والمسجد الحرام. وفيها تقام مناسك الحج فيقبل عليها الحجّاج من مختلف بقاع الدّنيا وتقام فيها مناسك العُمرة. وبالقرب منها غار حراء الذي شهد نزول الوحي لأوّل مرةٍ على النّبي محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد تطورت شخصية أهالي مكة على مر العصور، مثلما تطور عمرانها، فمُفتاح مدينة مكة المكرمة هو الحج، كما أنه مفتاح شخصية المكيين، ويتمثل ذلك في قبول الآخر والانفتاح عليه، والدعوة إلى حواره، بدرجة رفيعة من (التسامح والتعددية)، ويُقسم أهل مكة العام لفترتين (المُوسم) أي موسم الحج، و(البصارة) وهي تشمل بقية أيام العام، وما يصدم الحاج في الموسم في هذه المدينة التي يتخيل أنها مثالية هو سعي أهلها إلى الربح من ورائه بأي وسيلة، فقد ظل الموسم لسنوات طويلة مصدر الدخل الحيوي لأهل مكة، ينتظرونه من العام للعام، وأهم المهن التي كان يُفضل أهل مكة امتهانها دومًا هي مهنة الطوافة، ولكن من المؤكد أن الذي يرى أهل مكة خارج موسم الحج يجدهم عذبي المعشر، مولعين بالمرح، كرماء لدرجة التبذير، يكرسون جهودهم لحياتهم الاجتماعية، وإن الذي يراقب حياتهم عن كثب يجد بجانب الخشونة والفظاظة التي عند بعضهم أناسًا نبلاء المعشر، كريمي الصفات أتقياء ذوي ورع وصلاح.

ومن الصعب أن تعثر على أهل مكة خلال موسم الحج، فهم يتحولون إلى قطرات غير مُميزة وسط الزحام العظيم، ولا تخلو مكة أبدًا من الغُرباء، فالزوار لا يكفون عن رحلات العمرة طوال العام، كما أن العاملين والمقيمين فيها هُم عينات واقعية لكل العالم الإسلامي، وقبل أن يسود مُصطلح العولمة كانت مكة هي المثل الحقيقي للقرية العالمية التي تتشارك فيها كُل الملامح البشرية، ومن المُؤكد أن أهل مكة قد تأثروا بكُل هذه الطبائع الوافدة عليهم.

لقد تداخل هذا الفسيفساء البشري في تلك الملامح المكية المؤتلفة على حد تعبير، وعلى الرغم من تكونها من عناصر مُختلفة فإنها تصب في النهاية في جِماع الشخصية المكية، وخليط في خلقهم، وتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم وداعة الأناضولي، وعظمة التُركي، واستكانة الجاوي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وصلابة الشركسي، وسكون الصيني، وحِدة المغربي، وبساطة الهندي، ومكر اليمني، وحركة السوري، وكسل الزنجي، ولون الحبشي، بل تراهم جمعوا بين رفعة الحضارة وقشف البداوة.

ربما كانت رحلة الحج إلى مكة من أصعب الرحلات في تاريخ البشرية، ولعلها مُعجزة حقيقية أنها استمرت وتواصلت خلال مئات من السنوات بالرغم من الموت والقحط والحروب وانتشار الأوبئة وقلة المياه وهجوم البدو، ولقد ظل توافد الحُجاج على هذه المنطقة مُتواصلًا، بل إن الأعداد كانت في ازدياد رغم شدة المخاطر، ولقد كان الرحيل إلى مكة حلمًا أقوى من مخاوف الموت، بل إن الموت نفسه عُد ثمنًا رخيصًا من أجل الوصول والتعلق في أستار الكعبة، فلقد كانت رغبة الجميع في التوبة والغُفران حارقة. ولم يتصور أحد أن تُوهب له هذه الأشياء دون القيام برحلة الحج.

لم يكن جوزيف كونراد يدري بالضبط ماذا يعني الحج، فقبل أن يكون

كاتبًا من أشهر الروائيين الذين كتبوا باللغة الإنجليزية كان بحارًا ونصف قرصان يعمل في بحار آسيا الجنوبية على ظهر سُفن ضخمة ومُتهالكة تمخر وسط بحار العواصف، سفينة أشبه بالتوابيت العائمة، يصف كونراد في روايته الشهيرة (لورد جيم) كيف تتحول هذه السُفن في موسم الحج إلى شاحنات للبشر، آلاف من البشر الفقراء يخرجون من كُل موانئ آسيا المُسلمة ليتكدسوا في القيعان المُظلمة وسط البضائع والفئران دون نسمة من الهواء النقي أو وجبة حقيقية من الطعام، ولا تنتهي الرحلة إلا وقد ماتت منهم أعداد كبيرة، وبعد ذلك يبقى الجزء الأكبر رعبًا في هذه الرحلة داخل الصحراء العربية نفسها. فلقد ظل الطريق إلى مكة والمدينة على حالته البدائية مُنذ ظهور الإسلام حتى وقت قريب من أوائل القرن الماضي، ويبدو أن كُل الحُكام المُسلمين على اختلافهم قد اتحدوا على إبقاء الحجاز منطقة بعيدة ومعزولة من الصعب الوصول إليها أو الخروج منها، وكانت مُهمة الولاة ـ أمويين وعباسيين وفاطميين وعثمانيين ـ هي تحويل الصحراء بينهم وبين الحجاز إلى حجاب عازل، ولم يكن أحد منهم يتذكرها إلا في مناسبتين، عندما تهب ثورة أو تمرد فيقمعونه بمُنتهى العُنف، أو عندما يخطر لأحد الأمراء أو الخُلفاء أن يقوم بالحج، وفي هذه المُناسبة تحفر بعض الآبار المُؤقتة التي سُرعان ما تردمها الرمال، أو يسترضون بعضًا من القبائل التي ما تلبث أن تعود لدأبها السابق من السرقة والنهب، لم يتذكر مكة والمدينة إلا فُقراء المُسلمين والعُلماء بقلوبهم المتوهجة التي تُرى في مجاورة الحرم عودة إلى منابع العلم الأولى.

ولكن ظل الحرم بعيدًا ونائيًا، لا توجد حوله إلا قبائل جائعة لا تجد في موسم الحج إلا فُرصة كُبرى للاستغلال، ولا تجد في الحجاج إلا ضحايا يجب مص دمهم وقتلهم إذا لزم الأمر. وقد زادت حدة هذا الأمر في عهد

الأشراف، وهُم من سُلالة آل البيت، وقد توالوا على حُكم مكة والمدينة بتشجيع من الحكام الفاطميين وأصبح لهم نوع من الاستقلال الذاتي، وقد قاموا ببعض الإصلاحات العمرانية والإدارية، إلا أنهم كانوا شديدي القسوة على حُجاج بيت الله فقد فرضوا الضرائب لا على رأس الحاج فقط ولكن على متاعه وعلى الدابة التي يركبها، وفي عهد صلاح الدين الأيوبي بلغ من جشع أحد هؤلاء الأشراف أنه كان يفرض على رأس كل حاج سبعة دنانير ذهبية كاملة، وكان يحبس الحُجاج وجِمالهم في حظائر ضيقة في ميناء جدة، وبالرغم من سطوة صلاح الدين فإنه أدرك أن القوة لن تجدي نفعًا مع هذا الشريف، لذا فقد اتفق معه على أن يرفع هذه الضريبة الجائرة في مقابل شحنات من القمح يُرسلها له كُل عام، وأوقف صلاح الدين خراج عدة قرى في مصر من أجل هذا الغرض، بل ويُقال أيضًا إن صلاح الدين أبطل ثمانين نوعًا من الضرائب والمكوس كانت تُفرض على الحجيج، ولابد أنه حتى سيور نعال الحاج لم تكن تنجو من الضريبة. وعلى أية حال فلم يستمر هذا الاتفاق طويلًا، فما إن مات صلاح الدين وكف خُلفاؤه عن إرسال القمح إلى الشريف حتى عاد إلى سيرته في حبس الحجيج وسلب أموالهم.

يصف لنا إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري في مذكراته الشهيرة كيف كان العُربان يُحاصرونه ويفرضون عليه الرسوم والإتاوات رغم أنه كان رجلًا عسكريًا وبصحبته حامية من العساكر، ولكنه كان يُدرك أن المُقاومة لن تتسبب إلا في خسارة المزيد من الأرواح، ولكنه ما إن ينتهي من التفاوض مع قبيلة حتى تظهر له قبيلة أخرى تُطالب بإتاوات جديدة، بل إن دلائل القوافل أنفسهم كانوا يتعمدون تضليل القوافل بعيدًا عن الطرق المألوفة حتى يتركونها فريسة للصوص الذين سبق الاتفاق معهم.

وكان الأمر يتحول إلى مذبحة حقيقية إذا ظهر من القافلة أي نوع من المقاومة، وعلى حد تعبير الإمام محمد رشيد رضا فإن الحُجاج الوحيدين الذين كانوا يشعرون بالأمان هُم الحجاج الأفارقة لأنهم كانوا يسيرون على أقدامهم دون أن يملكوا من حُطام الدنيا شيئًا يُمكن أن يُسرق، وقد كتب الشاعر أحمد شوقي قصيدة طويلة بعنوان (ضج الحجيج) يستصرخ فيها السلطان العثماني عبد الحميد أن ينقذ رعاياه المسلمين من سطوة العُربان، ولم يكن الشاعر يُدرك أن السلطان قد بات عاجزًا عن صيانة عاصمة مُلكه، بل وحياته نفسها من سطوة الإنكشارية، وأن الأقدار كانت تعد العدة لخروج رجل آخر من عُمق الصحراء هو الذي سيُعيد الأمان المُفتقد لحُجاج بيت الله، ويضع الأساس لإنشاء أول دولة حديثة هو سمو الملك عبد العزيز بن سعود رحمه الله.

كانت المُشكلة الأخرى التي تواجه الحجيج في تلك الصحراء الجافة هي الماء، فقد كان سعره في موسم الحج يرتفع إلى أسعار مضاعفة، وربما ندر وجوده تمامًا، فبئر زمزم وغيرها من عيون مكة لم تكن في متناول الجميع وكان يتولى أمرها من يتحكم فيها ويفرض السعر الذي يراه، كما أن معظم الماء الذي كان متوافرًا كان مالحًا ومتسخًا ومليئًا بالرمل، وكان الحمالون يأخذون الثمن مضاعفًا إذا كانت خيمة الحاج بعيدة بعض الشيء، بل إن الحجاج كانوا يتوضأون من نفس الحوض الذي تشرب منه الدواب.

وقد كتب ميرزا داود وزير الوظائف في إيران عن الحج: لا أستطيع أن أنسى منظر تلك المرأة المصرية التي يبس لسانها من العطش، وعرضت عليَّ سوارًا في يدها مُقابل جَرعة ماء، فلما أعطيتها الماء ورفضت أخذ السوار منها عمدت إلى يدي فقبلتها، وأرادت السجود أمام شخصي الحقير، ولقد وهبت اليوم كل ما لدي من ماء فلم يبق لدي شيء منه حتى للوضوء.

ولكن هذا لا يُعد شيئًا أمام انتشار الأوبئة، فلم تكن تقتصر على موسم ومكان الحج، ولكنها كانت ترحل مع الحجاج إلى بلادهم، أي أنها تخرج من مكمنها الضيق إلى عالم واسع حيث تصبح الكارثة محققة، وإنصافًا للحقيقة فإن مكة بريئة من تخليق هذه الأوبئة، فهي منطقة جافة، مرتفعة الحرارة دومًا بصورة لا تسمح للجراثيم بالنمو والتكاثر، ولكن الالتقاء السنوي للحجاج هو الذي كان يخلق هذه المشكلة، وإذا أضفنا إلى ذلك قلة المياه وندرة النظافة الشخصية، كما أن نحر الذبائح وتركها في العراء أيامًا طويلة حتى تتعفن، كل هذا يقلب موازين البيئة في هذه البقعة الضيقة، وقد كانت المشكلة دومًا تأتي مع حجاج الجنوب من الهند وجاوة وماليزيا وإندونيسيا الذين يحملون أمراضًا مثل الكوليرا والطاعون كانت تستوطن في بلادهم بشكل دائم، وعندما يحدث الاحتكاك بينهم وبين المسلمين القادمين من الشمال مثل حجاج الشام ومصر والمغرب العربي يحدث الانتقال لهذه الأمراض المميتة. ويُعد الوباء الذي حدث عام 1865م هو أكبر الأوبئة التي شهدها العالم والذي استمر فترة طويلة، فقد عادت الباخرة البريطانية (سيدني) من جدة وهي محملة بأكداس من الركاب المرضى بالكوليرا، ورغم أن القبطان الإنجليزي كان قد ألقى في البحر عشرات من الجثث إلا أنه كذب عندما وصل إلى ميناء السويس وقال للسلطات إن كل شيء على ما يرام، وبعد يومين فقط انتشر الوباء في مدينة السويس، وكان أولى ضحاياه هو الربان وزوجته.

ثُم بدأ انتشار الوباء إلى كُل بلدة عاد إليها الحجاج بواسطة القطار، وفي خلال ثلاثة أشهر فقط كان قد حصد 60 ألف شخص، ومن الإسكندرية تسلل الوباء إلى أوربا فاجتاحها، كما اجتاح آسيا الوسطي، بل إنه عبر المحيط الأطلسي ليستقر في مدينتي نيويورك وجودالوب، ولم يختف الوباء إلا بعد تسع سنوات كاملة.

أما المُعجزة الثانية بحق فهي أن مُعظم هذه المشاكل قد انتهت وأغلقت الفخاخ أفواهها، وتقلصت أعداد الموتى إلا بسبب التدافع والزحام، إن من يشاهد تلك الأعداد الغفيرة من الحجيج التي تنام على الأرصفة والشوارع والأنفاق وحتى في المناطق الجبلية المُنعزلة دون خوف يُدرك مدى الأمن والسكينة اللتين تسودان مكة الآن، كما أن مصادر المياه مُتوافرة ومجانية في كُل مكان، وقد تحولت الدّواب التقليدية إلى أساطيل من الحافلات والسيارات، وارتفعت نسبة الرعاية الصحية إلى درجة مُذهلة، ورغم أن مكة واحدة من أكثر مُدن العالم ازدحامًا فإنها من أكثرها نظافة، ومن يعرف التاريخ ويتأمل الحاضر يُدرك أن ما يحدث اليوم هُو مُعجزة حقيقية. ولا يُوجد منظر أشد وقعًا في النفس من مشهد الكعبة المشرفة وهي مكسوة باللون الأسود الذي أصبح لونها التقليدي منذ عشرات السنين، وفي موسم الحج تُرفع هذه الأستار قليلًا حتى تبتعد عن الأيدي المُتدافعة التي يُمكن أن تُمزقها، وحتى يرى الجميع أيضًا أحجار البيت المُتواضعة الخالية من أي زينة، وتعود بهم الذكرى إلى أصله الصحراوي. ومع صعود الدولة الفاطمية وفي ظل العلاقة المميزة التي أقامتها مع أشراف مكة انتقلت مسئولية صُنع الكسوة إلى مصر، وفي عهد المماليك أنشئت أول دار لصنع الكسوة في مصر وضمت خيرة الخياطين والمطرزين والخطاطين في مصر، ولذلك فقد أوقف المماليك على هذه الدار ريع خمس قرى ما لبثت أن زيدت إلى سبع منها سنديس وسنتريس وغيرهما، وكان العمال قبل أن يدخلوا هذه الدار يتوضأون بالماء المعطر بالورد ويأخذون في التكبير طوال وقت العمل، وبواسطة هؤلاء (الأسطوات) أخذت الكسوة شكلها الأساسي: اللون والنقشة والحرف المكتوب، وكان خروج الكسوة من مصر مُتجهة إلى مكة يومًا مشهودًا في كُل

عام، إذ يتقدمها الجند وأمير الحج المصري والمحمّل على ظهره الهدايا إلى أهل مكة وتخرج القاهرة كلها لتراقبه وسط الموسيقى والتكبيرات والابتهالات حتى تأخذ القافلة وجهتها الأخيرة للرحيل.

وفي عام 1965م تصاعدت الخلافات السياسية بين السعودية ومصر بسبب حرب اليمن ورأت السلطات السعودية أن الكسوة قد تُستغل بشكل سياسي، كما أن التطور الغامر الذي شهدته المملكة كان قد أصبح يوفر لها القدرة على القيام بصنع الكسوة، وكان أن رفضت تسلم الكسوة المصرية وأبقت الكسوة القديمة على الكعبة عامًا كاملًا حتى استطاع مصنعها الخاص أن يصنع الكسوة الجديدة وأن يضيف إليها مع تراكم السنوات المزيد من النقوش والتجديدات.

كانت مكة ومازالت مُحرمة على غير المسلمين، ولكن هذا لم يمنع المُستكشفين الأوربيين من مُحاولة دخولها، فقد كان لديهم نوع من الإصرار والهوس الذي جعلهم يدفعون بحياتهم إلى حافة الخطر وإلى أن يغيروا مصائرهم، كان فيهم لصوص وأفاقون ومُغامرون وعُلماء وقساوسة وجواسيس محترفون خرجوا من كُل بُلدان أوربا، دافعهم واحد هو الرغبة في معرفة المنابع الأولى لهذا الدين والتأكد من أن تلك القوة لن تعود للانبعاث من جديد، تتفاعل داخلهم مشاعر تختلط فيها النظرة الرومانسية لاكتشاف الصحراء مع الدوافع الاستعمارية والتحدي الديني في أرض الدين الذي طالما تحداهم، وبعضهم كان مُنصفًا مثل الدنمركي كارستان نيبهور الذي يقول: ما إن تقترب من هؤلاء العرب حتى تُدرك أن تاريخهم يعود مُباشرة إلى العصور السحيقة التي تلت الفيضان، إننا في أوربا مُغرمون بتخيل أنفسنا كآباء للبشرية، معجبون بالمغامرات الساذجة التي نقوم بها، حتى اللغة التي

نتحدث بها مازالت خاضعة للتشكل اليومي، ماذا يُمثل هذا كُله أمام العراقة العربية ؟

بدأ فارس صليبي يُدعى رينارد دي شتالو رحلة التسلل للأراضي المقدسة في عام 1180م، كان يريد هو وجيشه أن يصلوا إلى المدينة المنورة ليهدم مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وفي حقيقة الأمر كان يُريد أن يسرق الكنوز التي كانت الأساطير تقول إنها مدفونة في قبر الرسول عليه الصلاة السلام، ولكن ما إن هبط بجنوده على شاطئ البحر الأحمر، حتى وجد فُرسان الصحراء العربية في انتظاره، كان مُعظمهم عُزَّل وعرايا ولكنهم دافعوا باستماتة أمام الجنود الصليبيين المتحصنين بالدروع الحديدية، وسقط الفارس دي شتالو، وسيق أتباعه إلى منى حيث تم قتلهم جميعًا. ولم يجرؤ جيش صليبي بعد ذلك على عبور الصحراء، ولكن محاولات المغامرين لم تتوقف، فقد خرج أفاق إيطالي يدعى لودفيكو فارسيما من فينسيا عام 1502م، وسافر إلى سوريا واستطاع أن يتنكر كحاج وأن يلتحق بإحدى القوافل التي خرجت من دمشق، كان رأس فارسيما مملوءًا بخرافات عصر النهضة، لذا فقد قدم وصفًا غير واقعي للأماكن المقدسة، بحيث يُرضي تصورات العقل الأوربي عن غرائب هذه الأرض، فقد أكد مثلًا أن هُناك حيوانًا يُشبه وحيد القرن يعيش داخل الحرم المكي ويختار فرائسه كُل يُوم من بين الحجيج، وبعد أن انصرف الحجيج اختبأ فارسيما وظل يتجول في الصحراء لمُدة سبعة أشهر كاملة حتى ذهب إلى عدن وتم القبض عليه بوصفه جاسوسًا. وتوالت محاولات المغامرين، بعضهم أصابه الفشل، والبعض الآخر استطاع التسلل بالفعل، وقدموا شهادات متفاوتة القيمة، ولكن أهمهم كان كارسن نبيهور الذي استشهدنا بقوله من قبل، فقد كان الشاهد الأخير على رحلة الموت التي شملت البعثة التي كان هو عضوًا

من أعضائها، كانت البعثة مكونة من ستة أفراد، طبيب وعالم نبات ولغوي وجيولوجي وعالم طبيعة ورسام هو نيبهور، وقد أرسل البعثة ملك الدنمارك فريدريك الثاني وكانت مهمتها اكتشاف الصحراء العربية، أو بالأحرى الأماكن التي حدثت فيها وقائع الكتاب المقدس.

تجول نيبهور كثيرًا في الصحراء العربية بعد أن حطت بعثته في اليمن، ومات أفرادها واحدًا بعد الآخر، وواصل هو السفر شمالًا حتى وصل إلى منطقة الحجاز، ولكنه لم يستطع الاقتراب من مكة، فقد أخبره الأهالي أن هناك قوى سماوية تحرس هذه المنطقة من دنس الأغراب، فما إن يقترب أي كافر حتى تخرج عليه كلاب مسعورة جائعة تنهشه نهشًا، وأخاف ذلك نيبهور فاكتفي برسم معالم منطقة الحجاز بما فيها من وديان وجبال.

ولكن الصحراء العربية لم تعرف مُغامرًا مثل بورخارت زعم أن الرحيل إليها لم يكن هدفه الأول، كان ما يُريده هو الذهاب إلى إفريقيا واكتشاف منابع النيل، ولكنه ذهب أولًا إلى سوريا ليتعلم اللغة العربية، وعاش في حلب بين السكان المحليين، وتطبع بطبائعهم وأجاد لغتهم، حتى أصبح حجة في علوم الدين وقيل إن والي مكة نفسه لم يكن يستطيع أن يكتشف أنه ليس مُسلمًا، وكانت خطته هي أن يذهب إلى الحج ثم يعود مع إحدى القوافل الإفريقية إلى مدينة تمبوكتو حيث يبدأ رحلة عُمره، وبمعونة والي مصر الذي كان في هذا الوقت محمد علي باشا استطاع بورخارت أن يلتحق بقافلة الحج المصرية، ولكن كُل شيء تغير عندما وصل إلى مكة، فلقد وقع في عشق المكان وقال:

ـ إذا سئلت عن مكان أتمنى فيه الإقامة إلى الأبد فإن هذا المكان هو مكة.

وقد تُرجم هذا العشق في حوالي 350 صفحة من الكلمات الحارة ووصف مكة بطريقة لم يُدع فيها مجالًا لمستكشف آخر.

أما الرحالة الذي لم يهدأ فقد كان ريتشارد بيرتون، ويمكن القول إنه كتب عن الصحراء العربية موسوعة كاملة، تحدث فيها عن الصقور والطقوس الدينية والآثار والثعابين والجبال والغناء، كان يملك مهارة فذة في تعلم اللغات، وقيل إنه كان يستطيع التكلم بحوالي 29 لغة، وسافر إلى القاهرة حيث أجاد اللغة العربية، وتردد على الأزهر ليعرف المزيد عن تعاليم الإسلام، ثم سافر متنكرًا مع قافلة الحجاج إلى مكة، وقدم وصفًا دقيقًا لهذه الرحلة وبخاصة المدينة المنورة، وعندما وصل إلى مكة كان قد أكمل اندماجه حتى أنه استطاع أن يدخل الكعبة، وأن يدفع الحجاج ليُقبل الحجر الأسود وهو يقول:

ـ لقد رأيت احتفالات دينية في أماكن عديدة، ولكنها لم تكن بكل ذلك الجلال والرهبة مثل مشهد الطواف حول الكعبة.

ولا تنتهي المحاولات، ولا يتوقف الرحيل لذلك الوادي الضيق وسط جبال مكة، كأن هناك أواصر قوية تشدهم إلى هذا المكان، إنه قلب العالم، وستظل الدعوة التي أطلقها أبونا إبراهيم لزيارة البيت شوقًا كامنًا في أصلاب الأرحام، وفي خلايا الأجنة، حتى يقبض الله الأرض ومن عليها.

المدينة المنوّرة

المدينة المنورة هي مدينة النّبي ﷺ واسمها «طيبة»، وكانت تُسمّى قبل الهجرة بيثرب، وترتفع عن سطح البحر نحو 619 مترًا، ودرجة حرارتها بالصيف تصعد إلى 38 درجة، وتهبط في الشتاء إلى عشر درجاتٍ فوق الصّفر نهارًا.

رأى بعضهم أنّ كلمة «يثرب» مُحرّفة عن الكلمة المصرية «إتربيس» وأنّ العمالقة قد بنوها بعد خروجهم من مصر. وذهب غيرهم إلى أنّ موسى في طريقه إلى فلسطين، وأرسل فرقة من قومه لتكتشف له تلك الجهة، فساروا إليها، وبلغهم موته فبنوا مدينة إتربيس وأقاموا فيها. وعليه فعمران المدينة يبتدىء من عام ألف وستمائة قبل الميلاد أو ألفين ومائتينٍ واثنتينٍ وعشرين قبل الهجرة.

كانت المدينة مركز لواء مُلحَق بولاية الحجاز ثم جُعِلت متصرفة قائمة بنفسها. وكان فيها عاملان كبيران يقومان بإدارة شؤونها وهما شيخ الحرم والمحافظ، وهذا الأخير في يده السّلطة العسكرية التي هي أهم السّلطات. ويتبع المدينة قضاء الوجه أو قضاء ينبع والكور وتيماء. ودومة الجندل والفرع وذو الرمة ووادي القرى وقرى عرينة والسيالة والرهط وكحل ومدين وفدك وخيبر.

المدينة مبنية في وسط وادٍ شاسع يمتدّ إلى الجنوب. وأغلب مبانيها من الحجر المجلوب إليها من المحاجر القريبة، وحارات المدينة نظيفة وضيّقة. وكان سوق المدينة يبتدىء من الباب المصري إلى الحرم الشّريف في شارعٍ ضيقٍ طوله 500 مترٍ تقريبًا والحركة فيه تكاد تنحصرُ في مُدّة الحج والموسم

الرّجبي وهـو موسم الزيارة الرّسمية في بلاد العرب. وتجارة المدينة مـدارهـا على وارداتهـا الخارجية، لا سيّما واردات جاوة والهند والشام، وعلى الخصوص في الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسجاجيد وغيرها. وتجارة البلح فيها هي أكبر التجارات وأوسعها لأن ضواحيها بها كثير من البساتين وفيها نخيل كثير، فإنها تُنتج نحو سبعين صنفًا من التّمر.

كان بالمدينة سابقًا مكتباتٌ كثيرةٌ أحسنها مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، وهي قريبةٌ من باب جبريل إلى جهة القبلة. وهذه المكتبة آية في نظافة مكانها وحُسن تنسيقها وترتيب كُتبها وأرضها المفروشة بالسجاد العجمي الفاخر. وفي باب السلام مكتبة للسُلطان محمود ومقدار الكتب التي فيها 4569 كتابًا. وفيها مكتبة للسلطان عبد الحميد الأول تضم 1659 كتابًا. وفيها أيضًا مكتبة بشير أغا في زقاق الخياطين، وفيها 2603 كتابًا، ويُقدّر مجموع هذه الكُتب بثلاثين ألف كتابٍ من الكُتب النّادرة المثال.

كان في المدينة حمامان تُركيان أحدهما داخل المدينة وهو من عمل السّلطان سليمان القانوني والثاني بالمناخة. وفيها خمس تكايا أهمّها التكية المصرية والباقي يسمّونها رباطات. وللمدينة المنوّرة حرم مثل حرم مكّـة كان يبلغ قطر دائرته قبل التوسعات الحديثة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد وسلفه الراحل الملك خالد نحو كيلومترين.

في المدينة وضواحيها مزارات كثيرة أشهرها مسجد قباء ومسجد سيّدنا

حمزة والبقيع. أمّا مسجد قباء فيبعد عن المدينة مسافة خمسة كيلو مترات. وهو أوّل مسجدٍ بُنِيَ في الإسلام، وبناه رسول الله في الجنوب الغربي للمدنية عند دخوله إليها في هجرته، وقد جدّد بناءه السلطان عبد الحميد الأول. وبوسط صحنه قبة أُقيمَت على مبرك ناقة النّبي صلى الله عليه وسلم حين قدومه إليها في هجرته من مكة. وأما مسجد سيّدنا حمزة فإنه يُوجد في شمال المدينة في وادي أُحد.

وهذا الوادي مشهور بالواقعة التي حصلت بين المُسلمين والمُشركين في 15 شوّال عام 2 للهجرة، وأبلى فيها المسلمون بلاءً حسنًا واستشهد فيها سيدنا حمزة عم النبي r ودُفن فيها، شرقي مسجده الحالي. ومن حول قبره أُقيمَت قبور الشّهداء الذين قُتِلوا في هذه الواقعة وعددهم نيّف وسبعون.

وفي نهاية الوادي إلى الشمال جبل أحد. وهو جبلٌ صخريٌ من الجرانيت، وهو وإن كان من السلسلة الجبلية التي تخترق بلاد العرب إلاّ أنّه يكاد يكون منفصلًا عنها وطوله من الشرق إلى الغرب نحو ستة كيلومتراتٍ.

والبقيع له عند المُسلمين مكانة عظيمة ويُقال له بقيع الغرقد لأنّه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر، وبه دُفِنَ نحو عشرة آلاف من الصحابة الكرام، وكثير من آل بيت النّبوة منهم سيّدنا علي زين العابدين بن الحسين وولده محمد الباقر وولده جعفر الصّادق. ومن مساجد المدينة المباركة مسجد الرّاية ومسجد الفتح ومسجد القبلتين ومسجد السقيا ومسجد الغمامة ومسجد علي في طريق قباء، ومسجد المائدة أمام البقيع من جهة الشرق ومسجد

الأحزاب وراء جبل سلع الذي هو على يسار الخارج من الباب الشامي، ثم مسجد عروة. كان أهل المدينة يشربون من آبار كثيرةٍ منها: بئر الأعواف وبئر أنس بن مالك وبئر رومة التي اشتراها عثمان بن عفان ليُشرِب المسلمين منها في صدر الإسلام. وفيها بئر القويم وبئر العبّاسية وبئر صفية وبئر البويرة وبئر فاطمة وبئر عروة.

بالمدينة عيون ماء عذبةٍ منها عين الزرقاء نسبةً إلى مروان بن الحكم الذي أجراها بأمر مُعاوية وقتَ أن كان عاملًا له على المدينة، وكان يُسمّى الأزرق لزُرقة عينيه. ويمدّ ماء هذا العين مجرى مأخوذ من عينٍ في قباء أيضًا يسمّونها «عين النبي»، وماؤها يسير إلى المدينة. وفي ضواحي المدينة، عدا العين الزرقاء، عين كهف غربي جبل سلع، وعين الخيف وتجري من عوالي المدينة، وعين الوادي بجوار قبر حمزة ثم عين السلطان وهي مالحة وتجري من قباء إلى المدينة.

كان في المدينة بالجهة الشّمالية حدائق كثيرة بالقرب من السّور. كما كانت توجد حدائق رومية داخل السّور. وفي الجهة الشرقية بساتين وكروم كثيرة من النّخيل. وحول المدينة أودية كثيرة ينزل فيها كثير من مجاري السّيول التي تروي البساتين خصوصًا في الجهات المُنخفضة منها.

***

مدينة صنعاء

مدينة صنعاء القديمة التي ضمت مملكة سبأ وعرش بلقيس ترتفع عن سطح البحر أكثر من 2000 متر، ومرت عليها حضارات مُتعاقبة يُونانية ورومانية وفينيقية وغيرها لا تزال بصماتها واضحة في تلك المدينة المُتحفية،

والجبال المُحيطة بصنعاء تُعتبر هي الأعلى في منطقة الجزيرة العربية مما يفسر ولع غُزاتها ببناء حصونهم على قممها لدرء الأخطار عنهم، والقادم الجديد لصنعاء وغيرها من مدن اليمن لا بد أن يلاحظ أن الجميع لا يأبه بالصعود إلى الأعلى .. جبال .. مُرتفعات .. سطوح المنازل .. ومُرد تلك المُعاناة المقصودة هو أن متعة مضغ القات وتخزينه لا تكتمل سوى بالجلوس في مقيل مُرتفع بعد تجفيف الجسد صعودًا وهبوطًا من السوائل وحتى يمكن لرحيق القات أن يُؤتي مفعوله ... فالقات هو المفسر الوحيد لحركة المجتمع في اليمن.

صنعاء هي عاصمة اليمن. وتقع في منطقةٍ جبليةٍ عاليةٍ وسط شمال البلاد. تتفرع منها عدّة طرقٍ رئيسةٍ، أهمها:

1 ـ طريق صنعاء ـ صعدة باتّجاه الشمال. 2 ـ طريق صنعاء ـ الحديدة باتّجاه الجنوب الغربي.

3 ـ طريق صنعاء ـ تعز، فعدن على ساحل خليج عدن باتّجاه الجنوب.

صنعاء مدينة تجارية وصناعية تُصنَع فيها البرود اليمانية المشهورة. فيها العديد من الصناعات اليدوية التقليدية المُتمثّلة بصنع الأسلحة والخناجر والسّيوف، والأخرى الحديثة المُتمثّلة بصنع المواد البلاستيكية والأدوات المنزلية. وفيها مصنع الغزل والنسيج الكبير. وفيها جامعة علميّة وطنية ناشئة، ويُقدَّر عدد طُلاّبها بخمسة وعشرين ألف طالب وما يزيد على هذا العدد، وهي أنشئت عام 1970م.

وفي صنعاء مطار دولي لاستقبال الطّائرات العاملة على الخطوط الجوية الدّولية والأخرى الداخلية. فيها سور ضخم من عهد الأيّوبيّن، وعشرات المساجد. وهي قاعدة محافظة صنعاء. من أقضيتها عمران والجوف وكوكبان.

تُعَدّ صنعاء من أقدم المُدُن التاريخية، وكان اسمها «أزال». فلّما دخلت الحبشة اليمن قالوا «نعم، نعم»، فسُمّي الجبل «نعم»، أي «أنظر!». فلمّا رأوا مدينتها، وجدوها مبنيةً بالحجارة، حصينة، فقالوا:

ـ هذه صنعة ومعناه حصينة، فسُمّيَت صنعاء بذلك. وقيل إنّما سُمّيَت «صنعاء» باسم بانيها «صنعاء بن أزال بن يقطن بن عابر بن شالخ بن أوفخشذ بن سام بن نوح».

ولم يكن باليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلًا من صنعاء. وهي مُعتدلة المُناخ رغم علوّها الشاهق فوق سطح البحر.

كان في صنعاء بناء قديم قد خُرِّب، وهو على تلٍ عالٍ يُعرَف بغمدان. وكان لها تسعة أبواب، لا يدخلها غريب إلاّ بإذن. وكان أهلها يعتقدون أنّ صنعاء لا تخرب إلاّ من رجلٍ يدخل من بابها المُسمّى بباب حقل. فكانت عليه الأجراس متى حُرّكت سمع صوتها من بعيد، وكانت مرتبة صاحبة الملك، أي إقامته، على ميل من هذا الباب. وكان من دونه إلى الباب حاجبان بين كل واحد منهما إلى صاحبه رمية سهم، وكانت له سلسلة من ذهب محدودة، وفيها أجراس متى قدم على الملك شريف أو رسول أو بريد من بعض العمال، حركت السلسلة فيعلم الملك بذلك.

وتشتهر صنعاء القديمة بالأسواق، حيث المهن الرائجة كصناعة المشغولات الفضية والعقيق والجنابي والمهن الصامدة كالعطارة ومهن اندثرت وغاب صيتها مثل الكوافي.

وسوق الملح، يعتبر قلب المدينة التاريخي مستعص عن التغيير، الأبنية الحجرية راسخة كالجبال التي تحيط بالمدينة، أما الأرض قد تم رصفها بأحجار بيضاء بدلًا من الحصى القديم المدبب، والسيارات تزاحم الناس في الأزقة الضيقة، ولكن الوجوه اليمنية بملامحها التي تبدو كما لو تم نحتها بإزميل دقيق بدت على حالها، العمامة على الرأس والخنجر حول الوسط والقات في زاوية الفم، تختلف الوجوه والأعمار والأحجام والمراكز الاجتماعية وتبقى هذه السمات الثلاث، في تلك الساعة من ظهيرة اليوم، السوق مازال يحمل السمة الأساسية لكل الأسواق الإسلامية القديمة، دوائر متصلة من الحوانيت والبيوت مركزها المسجد، أو الجامع الكبير وهو من أوائل المساجد التي بنيت في الإسلام، ثم يقسم السوق حسب البضائع المعروضة، كل جزء من السوق يختص ببيع سلعة معينة حتى يسهل للزبون المقارنة بين أنواع البضائع المختلفة. وتكاد تكون جميع المنازل في صنعاء القديمة متشابهة إلى حدٍ كبير في مكوناتها الخارجية والداخلية، مساكن مبنية بصخور البازلت والطوب الطيني وخطوط عريضة من الجص الأبيض مسحت على أطراف النوافذ والبيوت وكأنها وضعت لتحديد وإبراز معالم كل بيت، كل منزل لا يتجاوز ارتفاعه خمسة طوابق والتقسيم المتعارف لسكان تلك البيوت هو الأدوار العليا للرجال وبخاصة الدور الأخير والأدوار السفلية مخازن للحبوب وحوش لتربية بعض أنواع الحيوانات المفيدة لاحتياجات المنزل، أما الأدوار الوسطي فهي للنساء والمطبخ عادة ما يكون بجانبهم. وهذه البيوت التي تتشابه تمامًا محرم على أصحابها إدخال

أي تعديلات أو ترميمات عليها دون إذن من الهيئة العامة للحفاظ على المدن التاريخية، فهي الجهة المخولة بالقيام بتلك المهمة خوفًا من تشويه النسق العمراني القديم والموحد للمدينة،وبالرغم من ذلك الحرص تسببت بعض عمليات الترميم العشوائي لبعض البيوت في تدخل مجلس التراث العالمي التابع لمنظمة اليونسكو في منتصف العام الماضي 2002 الذي لوح بإسقاط مدينة صنعاء القديمة من قائمة التراث الإنساني إذا لم تتخذ إجراءات مشددة للإبقاء على الطابع المعماري للمدينة ووقف كل عمليات البناء والترميم فيها. والجامع الكبير من معالم صنعاء، والذي يعد من أقدم المساجد في الإسلام حيث بني في السنة الثامنة للهجرة بأمر من الرسول عليه الصلاة والسلام على أنقاض كنيسة أبرهة الأشرم الذي سعى لهدم الكعبة المشرفة وتحويل الناس إلى كنيسته فخاب مسعاه بعد أن أرسل الله له طيرًا أبابيل رمته وجنوده بحجارة من نار فأهلكهم جميعًا، وقد اتخذ هذا الجامع الواسع نفس الطابع المعماري للحرم. ويُنسَب إلى صنعاء خلق كثير من أهل العلم، منهم عبد الرزاق بن همام بن نافع أبو بكر الحميري الصنعاني، أحد الثقات المشهورين. وروى عنه سفيان بن عيينة، ومعتمر بن سليمان، وأبو أسامة حماد بن أسامة، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن يحيى الذهلي، وعلي بن المديني، وأحمد بن منصور الرمادي، والشاذكوني. مات عام 211 هـ، وصنفتها منظمة اليونسكو مدينة تراثية عالمية عام 1986م.

***

مدينة عدن

تقع مدينة عدن اليمنية على ساحل بحر العرب في خليج عدن بالقرب من باب المندب، المدخل الرئيس للبحر الأحمر. وهي ثغر اليمن وبوابته

الجنوبية. يقع ميناءها وسط خور اليمن المحاط بحواجز طبيعية من الجبال تحمي السفن من العواصف والتيارات البحرية. مدخل الميناء طبيعي بعمق 20 إلى 40 مترًا وتتبعه قنوات قابلة للتعميق بسهولة. تعتبر عدن من أجمل المدن اليمنية الساحلية التي تمتاز بشواطئها البديعة المتنوعة ومبانيها العريقة وقلاعها وحصونها المنيعة وأسواقها العديدة. وقد حازت هذه المدينة على شهرة دولية كمركز للتجارة البحرية منذ قرون عديدة قبل الميلاد وكانت محطة لتجارة البخور والتوابل وممرًا للقوافل. دعاها الفينيقيون «أيدن» وسماها اليونانيون «أيود يمون أرابيا» أي العربية السعيدة. ووصفها المؤرخ العربي الهمداني بقوله: عدن جنوبية تهامية وهي أقدم أسواق العرب».

استعادت عدن في العهد الإسلامي دورها التجاري والتاريخي عندما قام ابن زياد والي الخليفة العباسي بتحويلها في القرن التاسع ميلادي إلى ميناء ومدينة تجارية. وبلغت أوج مجدها وازدهارها في عصر الدولة الرسولية (1228ـ1435م). وفي العصر الحديث كانت عدن أول مدينة عربية تقيم نظام التجارة الحرة من عام 1850 إلى 1969م واستطاعت أن تحتل المكانة الرابعة بين موانئ العالم من حيث الأهمية التجارية وتموين السفن. في عدن عدد كبير من «العدنات» ما بين قرى عامرة وأخرى مندثرة منها: عدن حمادة، عدن أهور، عدن غير، عدن أرود، عدن جعشان، عدن الشهي، عدن الراحة، إلخ... وأكثر هذه «العدنات» منتجعات اتخذها الناس طلبًا للحماية والأمان، وتوسع بعضها حتى شمل أغلب الجبل الذي تربض تحته مدينة عدن.

احتل البرتغاليون عدن عام 1513 وجاءها الإنجليز عام 1839 وجعلوها قاعدة عسكرية بحرية لحماية طريق الهند وجعلوها مركزًا للتموين والتجارة، وأقاموا فيها مصفاة نفط كبيرة. أصبحت عدن عاصمة الجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية بين 1970 و 1990 بعد خروج

الإنكليز واستقلال اليمن وانفصال الجنوب اليمني عن شماله. وعادت عدن كما الجنوب المنفصل إلى حضن اليمن بعد حرب بين الشمال والجنوب انتهت بانتصار حكومة صنعاء وتوحيد البلاد. وأشهر وآخر مُحتليها كانوا هم الإنجليز الذين انتزعوها في عام 1839 م من أيدي البرتغاليين لتكون واحدة من أهم الموانئ في طريق مستعمرتهم في الهند، كانت ضحية التخلف والتنازع المستمر بين مجموعة مشايخ المحميات، أشبه بنسخة مزيفة من ملوك الطوائف الذين أضاعوا الأندلس، وأضاعونا فيما بعد، كان الاستيلاء على عدن حدثًا مهمًا في تاريخ الاستعمار البريطاني لأنها كانت أول قطعة من الأرض يستعمرها في عصر الملكة «فيكتوريا»، ومثلت منذ ذلك الحين واحدة من أربع نقاط كانت تتولى حماية الطريق البحري الرئيسي للأسطول البري الذي كان سيد البحار، هي جبل طارق ومالطة وقبرص وعدن، لذا فقد قاومت بريطانيا طويلًا حتى قبلت التخلي عن عدن ومنحها استقلالها في عام 1968، وهي تعتبر بذلك آخر الدول العربية التي نالت هذا الاستقلال.

«ولكن الطريق إلى هذا الاستقلال لم يكن سهلًا، وكذلك الطريق إلى الوحدة مع الشطر الشمالي، الطرق اليمنية دائمًا ما تكون وعرة وصعبة، ولم يدخل الإنجليز إلى عدن إلا على جثث الذين قاوموهم من أهل اليمن، ومازالت قبورهم تطل على ساحل «صبرة» حتى الآن، لقد استخدم الإنجليز مدافع الأسطول من أجل الاحتلال، ثم استخدموا الطائرات بعد ذلك لدك قرى اليمن، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أهل اليمن هذه الطيور القاتلة، لقد وضعوا أول خطوط التقسيم بين الشمال والجنوب، وجعلوا الشمال يغرق في ظلمة الأئمة، بينما ظللنا نحن في الجنوب نصارع دون جدوى أقوى إمبراطورية في العالم في ذلك الوقت».

وعدن هي البلد الثاني الذي دخله التلفزيون في أوائل الستينيات بعد العراق

الذي عرفه منذ الخمسينيات، حيث المبنى المتواضع الذي يشهد تجديدات شاملة، حيث أُحيلت أخيرًا أجهزة البث السوفييتية إلى التقاعد وحل بدلًا منها أجهزة يابانية حديثة، والجميع متفائلون بهذه الخطوة التي سوف تنقلهم من قناة محلية صغيرة، إلى فضائية تلتقطها الأقمار الحائمة في الفضاء.

عدن حافلة، فيها بصمة العالمية التي تجدها في كل الموانئ، خليط من العرب والهنود والأحباش وأهالي جزر الملايو البعيدة، يتعايشون في نفس البقعة من الأرض الراقدة على فوهة البركان، حيث الفندق القديم وفيه نزلت ملكة بريطانيا في إحدى غرفه عندما كانت في طريقها للهند، ولكن في المقابل كان هناك فندق آخر في العراء وسط «كرتير» الحي التجاري في المدينة، مجموعة من الأسرة الحديدية تحتل أحد شوارع المدينة وتنتظر روادها عندما يحل المساء، وفي جو المدينة الجاف لا يحتاج المرء إلى غطاء أو سقف يكفيهم أن سعرها زهيد لا يتجاوز النصف دولار لليلة الواحدة، وفي مكان آخر وعلى الرغم من السحر الذي تتمتع به شواطئ جولد مور، فإنه يوجد فوق تلالها واحد من أسوأ السجون في العالم هو «رأس مرباط» وهو السجن الذي قام الرئيس علي عبد الله صالح بنفسه بالمشاركة في هدمه بواسطة «البلدوزر»، وغير بعيد يمتد شاطئ «رامبو» الشاعر الفرنسي الذي كان عاشقا للشرق ورست سفينته في عدن وهو في طريقه إلى إفريقيا بحثًا عن الثروة والموت. لم يكن هناك مجال للرومانسية، فأمام الشاطئ توجد بقايا سفينة غارقة، حطام قاس من أيام الصراع على السلطة بين أعضاء النظام الماركسي الذي كان يحكم الجنوب عام 1986، الأمر الذي أطلقت عليه وسائل الإعلام في وقتها «صراع القطط التي تأكل أبناءها» وفي وسط الجبال التي تحيط بالمدينة توجد معجزة عدن الحقيقية، المعجزة التي جعلتها تتغلب على الجدب وشح الأمطار وسنوات الجفاف الطويلة، صهاريج طويلة محفورة في أعماق

الصخر، لا أحد يعرف من بناها على وجه التحديد، هل هي بلقيس ملكة سبأ التي ينسب إليها كل ما في اليمن من أساطير حية، أم أنهم ملوك الفرس، أم البحارة الأشداء الذين يعرفون قيمة كل قطرة من الماء العذب؟ فالصهاريج تنظم جمع كل قطرة من المطر تسقط فوق الجبال، وتحولها عبر مجموعة من المسارات والسدود إلى أن تتجمع كلها في خزانات ضخمة تقع أسفل هذه الجبال وتحفظها لوقت الحاجة إليها، وهي تسع حوالي 20 جالونًا إمبراطوريًا من المياه، فقد عرف الصهاريج كل الرحالة العرب، ولكن الإنجليز أعادوا اكتشافها في عام 1853 على يد سير لامبرت الذي أزال ما فيها من أوساخ ومخلفات وقام بترميمها وإعادة فتحها.

ولا تقف ميناء عدن طويلًا عند حافة الماضي، فهي تحلم بإعادة أمجادها عندما كانت في الستينيات تستقبل 60 ٪ من الحركة التجارية في المنطقة، ثم تضاءل دورها عندما أغلقت قناة السويس بعد حرب يونيو 67 وانصرفت السفن العملاقة بعيدًا عنها، وهي تطمح الآن في إعادة اجتذاب هذه السفن عن طريق المنطقة الحرة التي تقوم بإنشائها عند سفوح جبل «شمسان» وقد قامت بالتجهيزات الأولية بالفعل عن طريق إعداد رصيف للحاويات طاقته التشغيلية نصف مليون حاوية وأراض مزودة بمرافق تسع 300 مصنع.

لقد انتهز الإنجليز فرصة ضعف العثمانيين وتغلغلوا إلى الداخل ما بعد عدن، وعقدوا اتفاقيات للحماية مع شيوخ القبائل المرتعدين، وعلى إثر ذلك قاموا برسم الحدود التي فصلت بين الشمال والجنوب في عام 1873، ولم يوافق أحد على هذا التقسيم في ذلك الوقت على الأقل، وحاول الإمام يحيى أن يحرك قواته، فكشرت بريطانيا عن أنيابها وحركت طائراتها الحربية التي قامت بقصف القرى اليمنية، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها اليمنيون ذلك السلاح المرعب التي لا تطوله يد، واستسلم الإمام وأذعن

في النهاية للأمر الواقع ووقع مع بريطانيا معاهدة للصداقة والتعاون مدتها أربعون عامًا، ونلاحظ هنا أن الإمام المهزوم لم يستسلم كلية، لقد قام فقط بتأجيل المشكلة لعدد من السنوات، ولكن الأمور اختلفت في كلا الشطرين، فبينما غرق الشطر الشمالي في أسر سنوات طويلة من ظلام التخلف تحت حكم الأئمة،

حفل الشطر الجنوبي بحركة سياسية صاخبة، فقد تكونت الجمعيات السياسية وصدرت الصحف الأهلية، ومن الغريب أن عدن كانت هي المتنفس الأول لكل حركات المعارضة ضد الحكم الجائر في الشمال.

وقد كانت ثورة 26 سبتمبر عام 1962 تحولًا جذريًا في طريق الوحدة والمصير اليمني كله، ففي اللحظة التي نسف فيها الضباط الأحرار في الجيش اليمني قصر الإمام البدر بدار البشائر أضاءت طلقات المدافع أضواء فجر جديد طال انتظاره، ولكن تضاريس اليمن لا تدع طرقا سهلة، فالثورة ولدت ومعها تحدياتها، وجاء الجيش المصري للمساعدة فتورط هو أيضا في حرب طويلة الأمد، وهي حرب دفع هذا الجيش ثمنها غاليا عندما تلقى هزيمته النكراء في 67 على أرض سيناء، ولكن تأثير وجود هذا الجيش وقيام الجمهورية في الشطر الشمالي أحدث انقلابا في المنطقة كلها وجعلت ل الاستعمار البريطاني في عدن يبدأ في العد التنازلي لزوال نفوذه، فقد بدأ الكفاح المسلح ضده ولم يصل إلى نهايته إلا بعد أربع سنوات حصل بعدها اليمن الجنوبي على استقلاله يوم 35 نوفمبر 1967 وفق حدود دولية فرضتها إنجلترا وأرغمت الآخرين على الموافقة عليها.